

الأخلاق الإسلامية في عصر العرب



تأليف
محمد كرد علي

طبع على نفقة صاحبة العصمة قوت القلوب هانئ الدمراشية

القاهرة
مكتبة مصر ١٠ شارع فؤاد (سابقاً شارع الزواوي)

١٩٣٤

M.A. LIBRARY, A.M.U.



AR18618

Postman
1/1/23

1141A



11/11/23

11/11/23

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه محاضرات ثمان في الادارة الاسلامية على عهد عز العرب
حاضرت بها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية تحت إشراف كلية الآداب
من فروع الجامعة المصرية - جمهوراً من الطبقة المستنيرة في القاهرة
في شهر رمضان سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) . وكان ممن حضر هذه
المسامرات من أولها إلى آخرها صاحبة العصمة السيدة المهدبة قوت
القلوب هانم الدمرداشية من ربات البيوتات المصرية الشريفة وسليمة
البيت الكريم بيت أبي عبد الله المحمدى الشهير، فراقها أسلوبها في
البحث . وبالاتفاق مع عميد كلية الآداب العلامة الدكتور منصور
فهمى بك رأت طبع هذه المحاضرات على نفقتها لتعم فائدتها العالم
الاسلامى . فكان عمل هذه العقيلة النبيلة برهاناً آخر على نهضة المرأة
المصرية المسامة، وحرصها على مساهمة الرجال في الأخذ بمذاهب الثقافة
العربية، فأضافت مكرمة أخرى الى مكارم أهلها . جزاها الله عن عملها
الصالح أفضل الجزاء .

محمد كرد علي

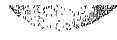
القاهرة في ٢١ شوال سنة ١٣٥٢ و ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ م

الإدارة الإسلامية

نظر في الموضوع

كثيراً ما حاول بعض الباحثين في شؤون الإسلام على عهده الأول أن يصوروا العرب في غير صورتهم ذهاباً مع أهواء النفوس ، وإن يستنتجوا استنتاجات ناقصة في أحكامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ويغضوا من بعض أحواله وينحوا انحاء شديداً على المدينة الإسلامية زاعمين أن العرب حتى في الإسلام لم يعملوا عملاً يذكر في باب التمدن وأنهم مقلدون في جميع أعمالهم ما زادوا على ما تعلموه من الروم والفرس من أساليب الحضارة . ولو صح ما قالوا لكانت قوانين فارس والروم صالحة للبقاء وافية بالغرض ، ولما استطاع العرب أن ينزعوا سلطان تينك الأمتين العظيمتين عن أجل أصقاع الأرض ويحكموها وينظموها على مثال مبتكر لم تسجد تشهد البلاد مثله .

وسنثبت في سلسلة هذه المحاضرات في الإدارة الإسلامية على عهد التفوق أن الإسلام ابتكر وأبدع في الحرب والإدارة والسياسة كما اخترع وأبدع في العلم والتشريع وأسباب المدنية على نحو ما يتجلى في صفحات التاريخ الإسلامي ، ونأثي بالبراهين التي لا يسع منصفاً عارفاً إنكارها . ونكتفي الآن بأن نقول إن من أهم المعجزات المحمدية بعد القرآن هذه الطبقة العالية من الصحابة السكرام الذين خرجوا من تلك البؤرة الطاهرة ذهباً ابريزاً وكانوا من أجل أدوات الإبداع فأبانوا في كل مواقفهم عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبعد نظر في إدارة الشعوب والممالك .



1927

2

1927

الإدارة الإسلامية

نظر في الموضوع

كثيراً ما حاول بعض الباحثين في شؤون الإسلام على عهده الأول أن يصوروا العرب في غير صورتهم ذهاباً مع أهواء النفوس ، وإن يستنتجوا استنتاجات ناقصة في أحكامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ويعضوا من بعض أصحابه وينجوا انحاء شديداً على المدينة الإسلامية زاعمين أن العرب حتى في الإسلام لم يعملوا عملاً يذكر في باب التمدن وأنهم مقلدون في جميع أعمالهم ما زادوا على ما تعلموه من الروم والفرس من أساليب الحضارة . ولو صح ما قالوا لكانت قوانين فارس والروم صالحة للبقاء وافية بالغرض ، ولما استطاع العرب أن ينزعوا سلطان تينك الأمتين العظيمتين عن أجمل أصقاع الأرض ويحكموها وينظموها على مثال مبتكر لم تكده تشهد البلاد مثله .

وسنثبت في سلسلة هذه المحاضرات في الإدارة الإسلامية على عهد النفوق أن الإسلام ابتكر وأبدع في الحرب والإدارة والسياسة كما اخترع وأبدع في العلم والتشريع وأسباب المدنية على نحو ما يتجلى في صفحات التاريخ الإسلامي ، ونأتى بالبراهين التي لا يسع منصفاً عارفاً إنكارها . ونكتفي الآن بأن نقول إن من أهم المعجزات الحمديّة بعد القرآن هذه الطبقة العالية من الصحابة السكرام الذين خرجوا من تلك البوثة الطاهرة ذهباً ابريزاً وكانوا من أجمل أدوات الإبداع فأبانوا في كل مواقفهم عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبعد نظر في إدارة الشعوب والممالك .

ولقد قضى هذا الضعيف الواقع بينكم زمناً طويلاً يتأمل ما كتب في تراجم الصحابة وتاريخ أعمالهم وتعليقها وحلها فما رأى، علم الله، بعد طول النظر واستعمال العقل النقاد إلا ما يعجب منه . وإذا كانت هناك بعض هنات قليلة نسبت لبعضهم فإنها ناشئة من خطأ في الاجتهاد . ومن الميسور أن يحجب عنها لان الصحابة كانوا بشراً أيضاً، وحب الدنيا قد لا يخلو منه أمثل الناس أخلاقاً . بيد ان التربية التي ورثها الصحابة من الشارع الأعظم قد هيأتهم لممارسة الأعمال العظيمة ، لما أخرجهم بهديه من الظلمات إلى النور ، فكانوا عظاماً في كل مظاهرهم حتى أدهشوا الأمم بجميل صنعهم، وانشأوا في نحو مائة سنة مملكة عظيمة لم يسبق لأمة قبلهم أن دانتهم في مثل ما تم على أيديهم .

أو كان يقوم كل هذا لولا ان الصحابة كانوا على استعداد فطرى تام لتلقى فضائل صاحب هذا الوحي العظيم فساروا بسيرته وعملوا بشريعته في كل أرض وطشها أقدامهم وارتفعت على ربوعها أعلامهم . ان ما نقله العرب عن غيرهم من تراتيب الممالك معروف ومعترف به ، والإنصاف يقضى أن يسجل لهم قسطهم من الأعمال المنبثقة مباشرة من قرائحهم اللزينة بأخلاق عالية ما عهد فيما نظن مثلها كثيراً في الأمم السالفة ولا الخالفة .

وها نحن أولاء نبدأ الليلة في الكلام على الإدارة في عهد الرسول وعمدتنا فيما نقتبس كتب الثقات والأمثات المعتبرة، وخططنا أن نتحاشى الاستنتاج بالمقياس الواسع إذا كانت الوثائق التي لدينا غير كافية . ومن الصعب على من يتوخى العدل أن يحكم على الشبهة ويحسم الصغير ، وإذا فعل يكون الحق في واد وهو في واد آخر . وهذا مما لا يليق بباحث غرضه الوصول إلى النور وإصاله إلى من يهمهم أن يستصبحوا به في موضوعات يشق على كل إنسان خوض عباها .

ادارة الرسول

دعا الرسول الى الإسلام لأول مبعثه ثلاث سنين سرّاً ، ولما اضطهد المشركون من قريش أصحابه أرادهم على التفرق في البلاد ، وأشار اليهم بالهجرة مع نسائهم إلى أرض الحبشة ، علماً منه بأن صاحبها يحسن جوارهم ولا يظلمهم ويعنتهم ، ثم دعا المسلمين الى المهاجرة الثانية فراراً بدينهم من أذى قريش الذين اشتدوا عليهم ، ومن جملة هذا الأذى أنهم كانوا يلبدسون المستضعفين من المؤمنين برسالة الرسول أذراع الحديد ثم يصهرونهم في الشمس ، فبلغ منهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ من حرّ الحديد والشمس . وكانوا يلصقون ظهر بعضهم بالرضف ^(١) حتى ذهب لحم متنه . وعن ابن عباس « والله إن كان المشركون ليضربون أحدهم ويجميعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم مأسألوهم من الفتنة وحتى يقولوا له آلات والعزى إهلك من دون الله فيقول نعم » . فكان الأمر بالهجرة أولاً وثانياً أول تدبير إداري من الرسول ، أتقذ به أصحابه من عنّت المشركين ، ريثما تستحكم قواه فيعود على أعدائه يعرفهم أقدارهم ، ويناقشهم أوزارهم .

وصحّحوا حديث «لا هجرة بعد الفتح» وقالوا إن الهجرة ^(٢) كانت واجبة في أول الإسلام على ما دل عليها الحديث ، ثم صارت مندوباً إليها غير مفروضة ، وذلك قوله تعالى : (ومن يهاجر في سبيل الله فيجد في الأرض مراً غماً ^(٣) كثيراً وسعة) نزلت حين اشتد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله الى المدينة ، وأمروا

(١) الرضف الحجارة الحماة (٢) الاعتبار في النسخ والنسخ من الآثار للحازمي (٣) مهاجراً

بالانتقال الى حضرته ليسكنوا معه ، فيتعاونوا ويتظاهروا ان حَزَبَهُم أمر ، وليتعملوا من أمر دينهم ويتفقهوا فيه ، وكان أعظم الخوف في ذلك الزمان من قریش وهم أهل مكة ، وكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو ولدوا بها نيفاً وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة . وقال الرسول : أنا برىء من كل مسلم مع مشرك قيل لم يارسول الله ؟ قال : لا تراءى ناراهما ، أى يلزم المسلم ويحب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أوقدها فى منزله ولكن ينزل مع المسلمين فى دارهم . واتما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان وحث المسلمين على الهجرة .

ولما ظهر الاسلام على الشرك طفق الرسول يدعو الى دينه جهره وأخذ يرسل أمثله من دخلوا فى الاسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . واذا وفد عليه وافد يعهد اليه أن يعلم قومه دينهم و« إمام كل قبيلة منها لنفوس طماع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها » وإذا كان الوافد من رؤوس قبيلة يؤسد اليه جباية الفى ، ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين ، ويوصيه أن يلين للناس فى الحق ، ويشدد عليهم فى الظلم ، وأن ينههم إذا كان بين الناس هييج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين فى الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن^(١) عنها . وبعث معاداً إلى النبي^(٢) فقال له : إلك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم اليه عداة الله تعالى فإذا عرفوا الله

(١) فتن الرجل في دينه مالعه (٢) تيسير الوصول لأن الديع

تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وكتب الى عمرو بن حريث عامله على نجران كتابا فى الفرائض والسنن والصدقات والديات . واكتفى الرسول باخذ الجزية من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل دومة الجندل وهم نصارى وأكثرهم عرب . (١) وبلغ أناساً من المشركين ممن لم يكن لهم عهد ولم يوافوا الموسم ، أن رسول الله أمر بقتال المشركين ممن لا عهد لهم فقدموا على الرسول ليجددوا حلفاً فلم يصالحهم الرسول إلا على الاسلام واقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأبوا فخلى سبيلهم حتى بلغوا مأمنهم ، وكانوا نصارى من قيس بن ثعلبة فلحقوا باليمامة ، حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على نصرانيته .

ولما كان الهدف الأسمى نزع الشرك من نفوس العرب أولاً ، رأينا الشارع إلى الرفق بأهل الكتاب لا يبايهم الشر إلا إذا قاوموه . وقد أحسن معاملة نصارى نجران ، وفدوا عليه ستين راكباً فيهم العاقب أمير القوم وذورائهم وصاحب مشورتهم ، والذي يصدر عن رأيه وأمره ، وفيه ثملهم وصاحب رحلهم ومعهم أسقفهم وجبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم (٢) فعاهدوه على أداء الجزية . وقال الرسول : من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجُه يوم القيامة . وقال : من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يَرَحْ رائحة الجنة . وقال : من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها . وجعل دية المعاهد كدية المسلم (٣) ألف دينار ، وعن مالك بن الوليد قال : أوصانى الرسول

(١) أفضية رسول الله للقرطبي (٢) العاقب الذى يخلف السيد وهو ثانى فى الرتبة ومنه جاء السيد والعاقب والثالث اللواتى يقوم بأمر قومه والمدارس البيت الذى يدرسون فيه (٣) كتاب الديات للضحك الشيبانى

أن لا أخطو إلى إمارة خطوة ، ولا أصيب من معاهد إمرة فما فوقها ، ولا أبى على إمام بالسوء .

ولم يحارب الرسول اليهود في حير وعيرها إلا لأنهم خانوا عهده وأرادوا قتله وكشفوا ستر سيدة من الأنصار . ويهود بنى النضير^(١) وبنى وائل هم الذين حزبوا الأحزاب عليه ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعواهم إلى حربته ، وقالوا إنا سكون معكم عليه حتى نستأصله فقطع نخل بنى النضير ثم صالحهم وحرّق على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يجرحهم من أوطاهم ، ويسيرهم إلى أذرعات الشام ، وحمل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء على أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة^(٢) ، وطاوله يهود خيبر وماكسوه^(٣) ثم صالحوه على حقن دماءهم وترك الذرية ، على أن يجولوا ويحلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبرّة إلا ما كان منها على الأحساد ، وأن لا يكتموه شيئاً ، ثم قالوا للرسول إن لنا بالعبارة والقيام على المحل علماء فأقرنا فأقرهم . وفي بنى النضير نزلت سورة الحشر . وأيد بنو قريظة لقتضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على الرسول . فأمر بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم واستفاءة^(٤) أموالهم .

ووضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالاً دين الكتاب العزيز أصنافها في عدة آيات وبين حكم اتفاقها فقال : (ما أقام الله على رسوله من أهل القرى فإله والرسول ولدى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون ذولة^(٥) بين الأعياء منكم) (واعلموا أنما عمتم من شيء فإن لله حمسه والرسول ولدى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (يسألونك عن

(١) سيرة ابن هشام (٢) الدرع وقيل السلاح كله (٣) ماكسوه شاكسوه والمأكسة المشاحة وطلب الخط من الثي (٤) استفاء المال أحذه بيتاً والى العيمة (٥) الدولة في المال أن يتداوله الأعياء ويكون مرة لهداؤ مرة لهداك

الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين () إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم .

قال في خراج يؤخذ من أرض العنوة ^(١) والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح ^(٢) ومما فتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها كأرض العرب وما أسلم عليه أهله أو فتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين في الأرض العربية ، ^(٣) ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الاسلام . ومن الأرض ما صولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبي فدك له خاصة ، لأنه لم يوجف ^(٤) عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . والأنفال الغنائم في القتال ، والصدقة أنواع هي الزكاة وهي عشر العلات التي تأتي من الأرض التي خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات الماشية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة والصدقات عروض التجارة . قال ابن جبيب: ^(٥) أول ما بعث الله نبيه بالدعوة بعشه بغير قتال ولا جزية ، فأقام على ذلك عشر سنين بحكمة بعد نوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية ، وأمره بقتال من قاتله والكف عمن لم يقاتله وقال الله عز وجل : (فان عتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) ثم نزلت راءة لثمان سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب من قاتله أو

(١) العنوة القهر وفتح البلد عنوة أى قسراً (٢) مفاتيح العلوم للحوارزمي (٣) الخراج لأبي يوسف (٤) أوحف العرس أعداء والمراد تجهيز جيش لفتح البلد (٥) تيسير الوصول لابن الديبع

أَكْفَ عَنْهُ إِلَّا مِنْ عَاهِدِهِ وَلَمْ يَنْتَقِضْ مِنْ عَهْدِهِ شَيْئًا فَقَالَ : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتَهُمْ وَخَذَوْهُمْ وَأَحْصَرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أَنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وَكُلَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْخَذُ مَنْ اهْتَدَى إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ وَمَنْ بَقِيَ عَلَى دِينِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَعْدَ لَا شَطَطٍ فِيهِ يَدْفَعُهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُعَاهِدُونَ طَبِيعَةَ نَفْسِهِمْ وَلَمْ يَتَّبِعُوا بِهِ أَحَدًا . (١)

شَكَاهُ يَهُودُ خَيْبَرَ (٢) — « وَكَانَتْ قَرْيَةُ الْحِجَازِ رِيْفًا وَمَنْعَةً وَرَحَالًا » وَكَانَ فِيهَا عَشْرُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ (٣) — عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَّاحَةَ . وَكَانَ الرَّسُولُ يَبْعَثُهُ كُلَّ عَامٍ يُحْرُسُ (٤) عَلَيْهِمْ تَمَرَهُمْ ثُمَّ يَقُولُ : إِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ فَلِي ، فَكَانُوا يَضْمُنُونَهُ فَشَكُّوا إِلَى الرَّسُولِ شِدَّةَ خَرْصِهِ (٥) وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ جَلَّالُوا لَهُ حَلِيًّا مِنْ حَلِيٍّ نَسَأْتُهُمْ فَقَالُوا : هَذَا لَكَ وَخَفَّفْنَا وَتَجَاوَزْنَا فِي الْقَسَمِ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ إِنْ كُنْتُمْ لَمْ تُبَعْضُوا خَلْقَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَا ذَاكَ بِجَامِلٍ عَلَى أَنْ أُحْيِفَ عَلَيْكُمْ وَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ عَلَيَّ مِنَ الرِّشْوَةِ فَاهَا السَّحْتُ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا . فَقَالُوا : هَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ (٦) وَالْأَرْضُ .

وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ يَنْتَحِرِ عَمَالَهُ مِنْ صَالِحِي أَهْلِهِ وَأَوْلَى دِينِهِ وَأَوْلَى عَمَلِهِ . وَيَخْتَارُهُمْ عَلَى الْأَغْلَبِ مِنَ الْمُنْظُورِ إِلَيْهِمْ فِي الْعَرَبِ لِيُوقِرُوا فِي الصَّدُورِ ، وَيَكُونُ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ ، يَحْسِنُونَ الْعَمَلَ فِيْمَا يَقُولُونَ وَيُسْرِعُونَ قُلُوبَ مَنْ يَنْزِلُونَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ ، وَيَكْشِفُ أَوْدَانَهُمْ أَمْرًا يَفْتَشَهُمْ ، وَيَسْمَعُ مَا يَنْقَلُ إِلَيْهِ مِنْ أَحْبَابِهِمْ . وَقَدْ عَزَلَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَصْرَمِيِّ عَامِلَهُ عَلَى الْبَحْرَيْنِ لِأَنَّهُ وَوَدَّ عَبْدُ الْقَيْسِ شِكَاةَ وَوَلَّى أَنَانَ بْنَ سَعِيدٍ وَقَالَ لَهُ : اسْتَوْصْ بِعَبْدِ الْقَيْسِ حَيْرًا وَأَكْرَمِ سِرَاتِهِ (٧)

(١) العشر والخراج في الخلافة العربية لمصطفى الشهابي (مجلة المجمع العلمي العربي ١٢)
(٢) المعارف لان قتيبة (٣) الخراج لآل يوسف (٤) يقدر (٥) تاريخ دمشق لـ
عساكر (٦) تيسير الوصول لان الديبع (٧) طلاقات اس سعد

وكان يستوفى الحساب على العمال^(١) يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا اهدى إلى . فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولّانا الله فيقول : هذا لكم وهذا اهدى إلى ، أفلا تعد في بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا . وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو عاقل^(٢) .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأي والبصيرة ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبأنوا عن قوة إيمان ، وتفان في بث دعوة الاسلام . وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وابو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وسليمان وعمار وحذيفة وابو ذر والمقداد وبلال . وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول اسلام قومهم ، والنقيب الضمين . وكان له عرفاء أى رؤساء جند . ويكتب له بعض جلة الصحابة من السكّلة ،^(٣) والكلمة في الجاهلية وأول الاسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرحى .

كان كاتب اليهود إذا عاهد والصلح إذا صالح عليّ بن أبي طالب . ومن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحنظلة الأسديّ والعلاء بن الحضرمي وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن أبي سلول والمغيرة بن شعبة وعمر بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب وجُهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنّة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وبلغ كتاب الرسول اثنين وأربعين رجلاً وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان . وكان الحارث بن عوف المزي على خاتمه ، وخاتمه من حديد ملون عليه قصة نقش ثلاثة أسطر محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر . ويضع خاتمه أيضاً

(١) الحسبة في الاسلام لان تيمية (٢) حياة (٣) طبقات ابن سعد

عند حنظلة بن الربيع بن صبي بن أخى أكرم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبي غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب ، وكان مُعَيَّنِيْب بن أبي فاطمة يكتب مغامم الرسول ، وكذلك كعب بن عمرو بن زيد الانصارى كان يقال له صاحب المغامم ، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس في قبائلهم ومياهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله بن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجههم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة والحسين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات ، وشرحيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك انتدبهم لهجو المشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وكان زيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحشمية واليهودية . وناجية الطقاوى ونافع بن ظريب النوفلى يكتبان المصاحف وشفاء أم سليمان بن أبي حنيفة تعلم النساء الكتابة وعبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن ، وكانت دار مخزومة بن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن . وأول قاضٍ في المدينة عبد الله بن نوفل ومقرى ، المدينة مصعب بن الزبير وأول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن ححش ، وعقد لسعد بن مالك الأزدى راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض وكان لوائه أبيض أو أصفر أو أعمر وله راية تدعى العقاب من صوف أسود مكتوب على رايته : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأول مغنٍ قسم في الإسلام مغنم عبد الله بن ححش . ومن عماله أبو ذحانة الساعدى وسباع بن عُرْفُطة عاملاه على المدينة ، وكان ثلاثة أرباع عماله من بني أمية لأنه إنما طلب للأعمال ^(١) أهل الجزاء من المسلمين والغناء ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والحمل بها والضمف عنها كما قال معاوية . واستعمل الرسول أنا سفيان بن

حرب على نجران مولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم .

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدّهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أنبي بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وقال : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وجمع القرآن أي حفظه جميعه من الأنصار أبي ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن ، هؤلاء أهم رجال الإدارة والقضاء والفقه والقرآن . وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتّاب ابن أسيد الذي استعمله والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهما فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجاج الله كبد من حاع على درهم فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أخرى على قيس بن مالك الأرجبي من همدان لما استعمله على قومه عرهم وحمورهم^(١) ومواليهم فأقطعه من ذرة نيسار مائتي صاع ومن زيب خيوان^(٢) مائتي صاع حارٍ له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتباخون به من الغنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنياً في الجاهلية والاسلام فجهز من ماله جنداً في سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله في هذا الغرض وهو راض مقتبط .

ولقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار بأخوة الاسلام والايمان ولطالما أقطع القطائع^(٣) ، وكان يتألف على الاسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد

(١) لعل صوابه حرها جمع احمر اى الاعاجم (٢) بخلاف في اليمن والنيسار جبل في حمى ضربة

(٣) القطيعة من الأرض طائفة من ارض الخراج

بتأليف قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك « المؤلف قلوبهم » وهم أحد وثلاثون رجلا من سادة العرب ، تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم في الاسلام ، ولثلاث^(١) تحملهم الحجة مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلّا مع الكفار على المسلمين ، وما منهم الا الشريف المسودد والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ، وكل منهم سيد في قومه مطاع فيهم ، قال صفوان بن امية : لقد أعطاني رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلى . وقال الرسول : إني لأعطي قوماً أتألف طلعهم^(٢) وجزعهم وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى . وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة التامة ، ويفضل مثلاً من الأزدي الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر وهم أعز الناس نفساً وأشرفهم ، وهم لم يؤدوا أتاوة قط إلى أحد من الملوك

كانت الحكمة في تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، وأعطى كل واحد من المؤلف قلوبهم في إحدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس في الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء للمؤلفة قلوبهم ، ودخل بعضهم في خدمة الدولة وتولوا العمالات وقيادة الجيوش ، ولم يبق عربي بعد واقعة حنين والطائف^(٣) الا أسلم ، ومنهم من قديم على الرسول ومنهم من لم يقدم ، وقنع بما أتاه به وأفد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب لقريش وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته ، فدخلوا في دينه وقلّ أن دخل فيه إلا من اعتقد صدق صاحبه ، وقد جاء قيس بن ثبابة السلمي فأسلم ورجع إلى قومه فقال : يا بني سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأسفار الرهبان والكهان ومقاول^(٤) حمير ، وما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال ابو سفيان

(١) تاج العروس للزبيدي (٢) الطلع العيب (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) مقبول
مقبول وهو القليل ابن الملك الصغير بلغة النين

ابن حرب : مارأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً^(١) .
 وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة حتى سُمى عام الوفود ، وبعث
 رسله الى ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، وفى سنة سبع بعث دحية الكلبي
 بكتاب الى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى الى هرقل ليدفعه الى قيصر ، وبعث
 عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أمية الى النجاشي وحاطب بن أبي
 بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية والعلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى ملك
 البحرين وشجاع بن وهب الأسدي الى الحرث بن أبي شمر الغساني ، والمهاجر بن
 أبي أمية الى الحرث ملك اليمن . وجاءت وفود العرب من كل وجه ، وكانت
 الرسول يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد
 القيس ، ومنهم من يبالغ فى إكرامه كملوك اليمن ، وإنما سموا ملوكاً^(٢) لانه كان
 لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه . وكانت كتبه الى ملوك الأطراف خارج
 الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظا فى بعض كتبه
 الى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة إلا فى قبيل واحد ، وذلك إرادة
 إفهام القوم ومخاطبتهم بألفهم من العبارات^(٣) . قال عليُّ للرسول وقد سمعه يخاطب
 وفد بنى نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تسلم وفود العرب بما لانفهم
 أكثره . فقال : أدنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد . فكان
 يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون .
 ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال فى بيته وبيوت أصحابه ،
 وفى الغالب أن النى يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالابل والشياء
 والخليل والبغال . والرسول يعطى الأهل^(٤) من النى حظين والعزب حظاً^(٥) .

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) طبقات ابن سعد (٣) العقد الفريد لابن عبد ربه — كتاب

الحنانة فى الوفود (٤) الأهل المزوج (٥) تيسير الوصول لابن الديبع

وما كانت تأخذه بالمشركين هوادة لاسيما بعد أن فتحت مكة ، وأطاعت الحجاز واليمن واليمامة وغيرها من أصقاع الجزيرة ، وما كان هوى من رسخ الاسلام في قلوبهم في شئ . من حطام الدنيا ، فقد بلغ من تبادل الثقة ^(١) والحب بين المسلمين في صدر الاسلام أنهم كانوا خلطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى : (وبوئثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . ولقد أهديت لعبادة ابن الصامت ^(٢) هدية وإن معه في الدار اثني عشر من أهل بيته فقال عبادة : اذهبوا بهذه الى آل فلان فهو أحوج اليها منا . قال الوليد بن عبادة فأخذتها فكسرت كما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها الى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية الى عبادة قبل الصبح . وأسلف عبد الله بن جعفر الزبير ابن العوام الف الف درهم فلما قتل الزبير قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إني وجدت في كتب أبي أن له عليك الف الف درهم فقال : هو صادق فأقبضها إذا شئت ثم لقيه فقال : يا أبا جعفر وهمتُ المال لك عليه فهو له قال : لا أريد ذاك . قال : فاختران شئت فهو له وإن كرهت ذلك فله فيه نظيره ما شئت ، وإن لم ترد ذلك فبعضي من ماله ما شئت .

مثال آخر من هذا الايثار . كان بالمدينة في زمن النبي شاب يقل له مالك بن ثعلبة الأنصاري ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فمرَّ بالنبي والنبي يتلو هذه الآية (والذين يكفرون الى قوله فذوقوا ما كنتم تكفرون) فغشى على الشاب فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة . فقال له النبي : نعم يا مالك . قال : والذي بعثك بالحق ليمسك مالك ولا يملك ديناراً ولا درهماً . قال : فتصدق بماله كله . وما كان أصحاب رسول الله بالمنخرقين ^(٣)

ولا المتأوتين^(١) يتناشدون الأشعار ، ويجلسون في مجالسهم ، ويدكرون جاهليتهم فإن أريد إنسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حماليةها^(٢) غضباً . بل كان منهم من إذا ارتكب كبيرة يعاقب عليها الاسلام يأتي الرسول بطلب إقامة الحد الشرعى عليه ، أو يسمع منه ما ينقلب به الى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تثلج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي مرة إحصاء المسلمين فقال : اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وحمائة رجل . وما كان يجمع المسلمين في أول أمرهم كتاب حافظ أى ديوان مكتوب^(٣) وكان إذا نودى للزحف وتخلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر ، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعمد أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتب ، ويقاطعه الجماعة ويحتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيو لغزو الروم في اليرموك ، تناقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم ، فوافق من نافع من المنافقين ، حين دعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان « ذلك في زمن عسرة^(٤) من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون للمقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه » وجاء المتخلفون عن هذه العزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وأيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وفي هذه الغزوة حض الرسول أهل الفنى على النفقة والحملا ن فى سبيل الله فحمل رجال من أهل الفنى واحتسبوا ، وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناساً للغزو يتكفلون بطعامهم وإطعام ذويهم ، ويعطونهم السلاح والسكر والعلباس ليغزوا

(١) تماوت أظهر من نفسه التحافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم (٢) الحلاق باطن الاجفان المحمر اذا قلت للكحل بدت حررتها وقيل الحلاق ما غطى الجفن من بياض المقلة (٣) سيرة ابن هشام (٤) سيرة ابن هشام

ويرابطوا^(١) . وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبدأ من يبذل شطراً صالحاً من ماله في وجوه البر والقرب لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وجميع ما غزا الرسول بنفسه سبع وعشرون غزوة وكانت بعوثه وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بعث وسرية ، وكان يورى بغزواته ، وقل أن يعين لأصحابه الوجهة التي يقصدها في غزاته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا . ولا يستكره من أصحابه أحداً أى يندبهم للعمل قسراً ، وذلك ليترصده بذلك قریشاً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبل والخربة والسيوف والدرع ثم اتخذ أنواع السلاح التي كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هَـزَّازَن^(٢) مئة درع بما يكفيها من السلاح من صفوان بن أمية ليلقي بها العدو على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها إليه . ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والجانيق والضبور^(٣) أى صنائع القتال فأرسل إلى جُرَشَ بْنِ اثْنَيْنِ من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رُمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون يُعَيِّدُ ذلك يعدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدي بن حاتم : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفرض فيهم حتى لا يوجد من يأخذ ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها . تزور هذا البيت

(١) المراقبة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل يستعد للقتل صاحبه فكأنهم يراهمون أى يقيمون على حدهم عدوهم بالحرب ومرابطات المسلمين مواضع حبيبة المراقبة ، مراقبة هم الجماعة رابطوا (٢) سيرة ابن هشام (٣) الضبور جلود تشفى حبس فيها رجل ، قالوا هي الدبابات تقرب للحصون لتقب من تحتها الواحدة ضربة .

لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم كما أهلكتهم .

رأينا الرسول في طور ضعفه ، ثم في طور قوته ، يحرص على رجاله حرصه على أعز شيء لديه . ولما دخل عمر في الإسلام اعتز به وترك به المسلمون التقيّة في دينهم ، بل إنه كان إذا سقط في يده أحد أذكىء المشركين أبقي عليه ، مهما كان من أيدائه للمسلمين أو له خاصة ، علّ في حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من قتلوا النفس التي حرم الله فهؤلاء لا تأخذه بهم رحمة ؛ قدم عليه نفر ^(١) من العرب قد ماتوا هزلاً فأسلموا واحتوتوا المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربوا من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم فما ترجل ^(٢) النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يحسن معاملة النساء عامة كما يحسن معاملة أزواجه خاصة فيؤثّرن أي تأثير في الرجال ، ويجعل منهن أدوات صالحة له يبت بواسطتهن دعوته ، ويرعى مصالح المسلمين ، وقد أوصى بهن أجل وصاة في خطبته يوم حجة الوداع . وهذا غاية في حسن الإدارة والسياسة لأن حل المسائل بدون مشا كل ، أنفع من حلها بطرق جافة . والنساء في هذا المعنى من أفعال أسباب الدعوة ، خصوصاً إذا كن كالصحيات يأخذن بمجامع القلوب بجميل عاطفتهن وجمال بلاعتهن . وكان يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء ويتولين من الرجال ما يصلح له كالطعام والاسقاء ، ويحمن من يحتاج الى تحميس

(١) أفضية رسول الله للقرطى (٢) ترجلت الشمس ارتفعت واحتوتوا استولوا

وجعل سعد بن معاذ في حبة لامرأة يقال لها ربيعة في مسجده كانت تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيقة من المسلمين . وكذلك كانت أخت ربيعة واسمها كعبه بنت سعيد الأسلمية . ومنهن من كنَّ يخطن القرب فالنساء في حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محسسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء في الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة في بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الادارية ما ورد في الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال : أي يوم هذا . قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمي به غير اسمه . فقال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى . قال : فأى شهر هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمي به غير اسمه . فقال : أليس بذى الحجة . قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسمي به غير اسمه . فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأعراضكم (وفي رواية وأموالكم) بينكم حرام محرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا ليبلغ الشاهد الغائب .

هذا جملة ما يقال في تدبير الرسول في الإدارة من بث دعوة ، وجهاد عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل البلاد . من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه العمل بين عماله ومعاملته لهم ولالوفود والنساء الى غير ذلك من أسباب القوة واتخاذ الجند والمخاربين ، واشتداده في الحق ولينه إذا دعت الحال الى اللين ، واغضائه أحياناً لما يلحق به من الأذى ، يرتقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

وما يصح التمثل به في باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأنحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا يُجَبَّانِ^(١) السلاح وصالح سهيلا بن عمرو أخا بني

(١) الجلبان اوعية السلاح بما فيها التمد والسيف فيه والكثافة والسهام فيها

عامر بن لوئى فدعا عليا بن أبى طالب . فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلا بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً بمن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن يبدنا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال^(١) وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه الخ . فاستاء المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من حصمه هذا العنت ، وكانت العاقبة له ولقومه .

إدارة الخلفاء الراشدين .

سار أبو بكر بسيرة الرسول في الإدارة الإسلامية واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبى أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل ولما سدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة : أنا أ كفيك المال . وقال عمر : وأنا أ كفيك القضاء . شكك عمر سنة لا يأتيه رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد . وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعي أن يعطى الإنسان الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله

(١) الإسلال الخيانة والإغلال السرقة . والعيبة في الرجل موضع سره أى يتنا وبهم في هذا الصلح صدر معقود على الوفاء بما في الكتاب نقي من النل والتدر والخذاع

لا يقارف منكراً ولا يسرف على نفسه ، ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق في أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه ، ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى في خلافة أبي بكر ، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء . على أن أبا بكر كان حذراً طاماً بالشريعة وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم ، إلى ما رزق من صدر رحب يطلب من كل صاحب إدارة . واختار من القضاة ما اختاره الولاة غالباً ، وكان ولاية المدينة ^(١) هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبي بكر حلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت . ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان ^(٢) ويكتب له من حضر ^(٣) ومن عماله عتاب بن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي العاص والمهاجر بن أبي أمية وزيد بن عبيد الله الأنصاري ويعلى بن منية وأبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل والعلاء بن الحضرمي وجريير بن عبد الله وعبد الله بن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنّة وزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة الملك الإسلامي في أيام أبي بكر أكثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات وهي مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وحولان وزبيد ورمع والجند ونجران وجرش والبحرين ، أم القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالاً من عندهم في الأرض التي يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما إليها ولاية .

(١) طقات ابن سعد (٢) تاريخ الطبري (٣) الكامل لابن الأثير

ولما ولي أبو بكر قال: قد علم قومي أن لحرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين في ما لهم وسياً كل آل أبي بكر من هذا المال ، ففعلوا له الفين وفي رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال^(١) . ثم قال : زيدوني فإن لي عيلاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه في خلافته ترك سبعة^(٢) دنانير فاستكثرها أبو بكر . ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقررًا للجند^(٣) وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم ، وإذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه في نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر . وكان لأبي بكر^(٤) بيت مال بالسُّنَج من ضواحي المدينة إلى أن انتقل إلى المدينة فقليل له ألا تجعل عليه من يحرسه ، قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء . ولما قضى نحبه ذهب عمر في نفر من الصحابة لاستلام بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً .

وجرى أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم علماً وعملاً . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله (ص) توفي وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له في دينه ما أغبط أحداً بالامارة . وقد خيرته في أمراء الأجناد فاخترتك على غيرك ، اختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي التقي الناصح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن

(١) تاريخ يعقوبي (٢) طبقات ابن سعد (٣) الفخري لابن الطلق (٤) الكامل لابن الاثير

جبل ، وليك خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واحد عندهم نصحاء وخيراً . وإياك واستبداد الرأي عنهم أو تطوى عنهم بعض الخير .
وشغل أبو بكر بقتال أهل الردة فوطد دعائم الدولة باظهار قوة المسلمين لمن خالفهم ، فجمع السمل الذي كان يخشى من انبثاته ، وبدا منه حزم عجيب وإدارة شديدة رشيدة ، وخالف جميع أصحابه في قتال من أخلوا بشروط الاسلام فأصر على قتالهم . ولقد قال عمر إن العرب لما ارتدت ^(١) ومنعت شاتها وبيرها أجمع رأينا كلنا أصحاب محمد أن قلنا لأبي بكر إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمدّه الله بهم ، وقد انقطع ذلك فالزم بيتك ومسجدك ، فانه لا طاقة لك بقتال العرب . فخالفهم كلهم أبو بكر وأعلن هذه الحرب على المرتدين حتى أذعنّت العرب بالحق . استبد أبو بكر برأيه فكان رأيه الصواب ، وقضى بصديق عزيمته وبسيد نظره قضاء مبرماً على آخر أثر من آثار الوثنية في الأرض العربية ، ولما أرسل الصديق الأمراء لقتال أهل الردة أوصاهم أن يقتصدوا بالمسلمين ، ويرفقوا بهم في السير والمنازل ، ويتفقدوهم ويستوصوا بهم في حسن الصحبة ولين القول ، وأمر قواده في المرتدين أن لا يقاتلوا أحداً ولا يقتلوه حتى يدعوه إلى الله ، فمن استجاب لهم وأقرّ وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبى يقاتل على ذلك ، ولا يبقون على أحد منهم قدروا عليه ، وأن يحرقوهم بالنار ويقتلوهم كل قتلة ، ويسبوا النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام .

ومن وصايا أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإنّي لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن في العرب غرة ، ^(٢) وأقلل من الكلام فإن لك ماوعى عنك ، وإذا أتاك كتابي فأنفذه

(١) الكامل للبرد (٢) بيت العدو أوقع بهم لبلا من دون أن يعلموا والذرة العفة

فإنما أعمل على حسب إنفاذه . وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحن في عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن إليها . وأنت تكنتى بغيرها ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده .

ولم يحدث أبو بكر في أيامه أحداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل في تنظيمه أقصى الجهد ، وجعل فيه قاضياً وجعل أبا سفيان بن حرب قاضاً يسير في الجماعة ويقول : الله الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، يا نصر الله اقترب يا نصر الله اقترب . وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية ليقبوا قلوبهم ، وقيل إن تيمم الدارى كان أول من قص في مسجد الرسول في عهد عمر ، كان يذكر المسلمين بالله ويقص عليهم قصصاً وأحاديث عن الأمم الماضية وأساطير وحكايات .

كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى أخذ له الحق ، ولا أضعف عندى من القوى حتى أخذ الحق منه ، وما كان عمر ممن أولع بالقاء الخطب كثيراً على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزير ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة وأراد بيان أمر ذهب فيه نزوات النفوس مذهباً لا مرضاه . وكثيراً ما قال إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا اللين في غير ضعف ، والقوى في غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين اللين والشدّة ، وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب . وإذا كان أكبر رجال الإدارة تحصى عليهم عشرات من الأغلاط فإن عمر لا يستطيع أكبر الناقدين أن

يُحصى عليه غلطتين أو ثلاثاً ، وقد يحجب عليها بأف ذلك محض اجتهد منه ،
والجهد قد يصيب ويخطئ . والحكم الآن على مسائل لم تتجلى كل التجلى بما نقله
الناقلون ، وما أحاط بها من أحوال دقيقة غير مرئية ، يدعوننا إلى أن نمسك عن
إرسال القول في النقد ، ولا سيما نقد رجل عفت أم كثيرة أن تنبغ أفضل
منه وأعظم .

وطريقة عمر في الإدارة طريقة أبي بكر وصاحبه من قبل ؛ اطلاق الحرية
للعامل في الشؤون الموضعية ، وتقييده في المسائل العامة ، ومراقبته في خلوته وجلوته .
« وكان ^(١) علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه في مهاده
واحد وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي
عامل ولا أمير حيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده ، فكانت ألفاظ من
بالمشرق والمغرب عنده في كل مُسمى ومُصْبِح . وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله
وعملهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به » وكان كما قال
المغيرة بن شعبة أفضل من أن يخدع وأعدل من أن يُخدع .

كان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم ^(٢) فيقول إني لم استعملكم على
أمة محمد على أشعارهم ولا على أبنائهم وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة
وتقتضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، لا تجلدوا العرب فتذلولوها ولا تجمروها ^(٣)
فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله
عليه وسلم وأنا شريككم . وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل جمع بينه
وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه . وكان إذا بمث أمراء
الجيش يوصيهم ببقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ولا يمتلوا عند

(١) الثناج المنسوب للحافظ (٢) تاريخ الطبري (٣) لا تؤخروها في دار الحرب

القدرة ولا يسرفوا عند الظهور ولا يقتلوا هروماً ولا امرأة ولا وليداً وأن يتوَقَّوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات وإن لا يملُّوا عند الغنائم وينزهوا الجهاد عن عَرَض الدنيا .

وكان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا سُكِّيَ^(١) إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وله عدة طرق في كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيشكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط ، قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا^(٢) لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارصوه ، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه . فقبل له : رأيت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أتقصه منه فقال : ومالي لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه .

وكان يستدعى عماله ليطلع على مطاوى نفوسهم ويكشف بنفسه إن كانوا أخذوا أنفسهم بأسباب النعيم لأن عمر يؤثر الخشونة^(٣) ويريد عماله أن يتبعوه في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه فكان كل يتشبه به من غاب أو حضر ، وهو يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رُزِقَهَا ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من

(١) تُسد العانة لاس الاثير (٢) أفاد القاتل بالقتيل قتله به (٣) مروح الذهب للسعودي

الأموال ، وكان ينهى عماله عن جيد اللبوس والركوب والمأكل ويلتفت في (١) كسائه وينام في ناحية المسجد فلما وُرد بالهرمزان صاحب تُستر عليه ، جعلوا يسألون عنه فيقال مرّه هنا آتفا فيصغر في قلب الهرمزان إذ رآه كبعض السُوفة حتى انتهى إليه وهو نائم في ناحية المسجد فقال الهرمزان : هذا والله الملك الهنيء ، يقول لا يحتاج إلى حراس ولا عدد فلما جلس عمر امتلاً قلب العليج (٢) منه هيبة لما رأى عنده من الجِد والاجتهاد واللس من هيبة التقوى . قالوا وكان أبا العيال (٣) يسلم على أبواجهن ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشتري شيئاً فيرسله معه بجواجهن ومن ليس عندها شيء اشتري لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقرن من الأبواب حتى أقرأ لكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتهن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هذه دواة وقرطاس فاذنين من الأبواب حتى أكتب لكن ويمر إلى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن .

وكان إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله وإصلاح الرعية وكتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لا يركب برّاً دواً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يفتق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد . وكتب إلى عماله : أما بعد فأيّاكم والهدايا فإنها من الرُشا . اهتدى إلى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل (٤) كان يهديه فخذ حزور فخاصم إليه رحلاً فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاءً فصلاً كما يفصل الرجل من سائر الجنود ، ففضى عليه عمر ، ثم كتب إلى

(١) الكامل للبدر (٢) العليج الرجل من كفار العمم والتقوى الضمهم منهم ح علوح وأعلاج

(٣) مراح الملك للطروشى (٤) الاشراف لان أبي الدنيا

عماله إن الهدايا هي الرشا . وكان عمر إذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحتجوا شيئاً من الأموال . وكان يعس نفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب إلى أبي موسى الأشعري عامله على العراق يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبسكوا ^(١) في النعيم وعهدت اليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب في الخسونة وعرف أنه سيدعوهم إلى طعامه فتجروّع له واتخذ خفين مطارقين ^(٢) ولبس جبة صوف ولات ^(٣) عمامته على رأسه فدعاهم عمر إلى خبز وأكسار ^(٤) بعير فجعلوا يعافونه لأنهم حديث عهد بهم بلين العيش ، وعمر يلحظهم ، ولفت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جُعله فأجاب إنه يرزق ألفاً فقال له عمر : إنه كثير ما تصنع به ؟ قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين . فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين في عمله لأنه رآه مقلاً متقشفاً لا يخشى أن يسرف في المال . وولى عمر رجلاً بلداً فوفد عليه ^(٥) فجأة مدهناً حسن الحال في جسمه عليه ردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ثم عزله ، ودفع إليه غنيمات يرعاها ثم دعا به بعد مدة فراء بالياً أشعث في ثوبين أطلسين ^(٦) وذكر عند عمر بخير فردّه إلى عمله وقال : كلوا واشربوا وادّهنوا فإنكم تعلمون الذي تنهون عنه .

وكان إذا قدم عليه الوفد سألم عن حالهم وأسعارهم وعن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود المريض ، إن قالوا نعم ، حمد الله

(١) تبسكوا تمكنوا (٢) عمل مطرقة ومطارقة محصورة وخصف العمل أطبق عليها مثلها وخرزها بالخصف (٣) لات عمامته على رأسه عصبا ولفها (٤) جمع كسر وهو العصل عليه قليل اللحم (٥) السكامل للبرد (٦) الأطلس تكسر الطاء الواح من الثياب والأطلس الثوب الحق

تعالى وإن قالوا لا كتب اليه أقبل . وكان من سنة ^(١) عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة وليحجروهم بذلك عن الرعية وليكون لشكايتهم وقت وغاية ينهونها اليه . كتب إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عميانه مجهولة ، وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولوساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا ، فأثر نصيحتك من الله فإن الدنيا تنفذ والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً ، رعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً . وقد بلغني أنه فشالك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلاً . فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن وإنما حنقها في السمن ، واعلم ان العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام . وهذا من كتبه الممتعة في الادارة وطريقته فيها .

وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يسبغ على عيناه وقد ظهرت شارته فنقصه من عطائه الذي كان يجري عليه ، ثم سأل عنه فقبل له قد شحبت نونه ، وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر . فرد عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبي عبيدة فلم ير إلا ليداً وصحفه وشناً ، وسأله طعاماً فأخرج له من حوته ^(٢) كسيرات فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل اليه أربعمائة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل منلها إلى معاذ ابن جبل فوزعها إلا أشياء قليلة سألتها امرأته إياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

(١) تاريخ الطبرى (٢) الجونة سلة صغيرة مغطاة بالادم

وكان معظم عمال عمر على غرار أبي عبيدة ومعاذ من التقشف والتباعد باليسير ، وكان إذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التي لا يرى غيرها لا يتسكاً عن عزهم . فقد شكوا أهل حمص عاملهم سعيد بن عامر وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يحجب أحداً بليل ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبره ويجلس حتى يحتمر فيخبزه ، ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للعبادة ، وأنه يشتغل مرة في الشهر بغسل ثيابه ، بعث إليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم ير معه إلا عكاراً وقدحاً فقال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ، فقال له سعيد : ما أكثر من هذا ، عكار أحمل عليه زادي وقدح آكل فيه . وكان من عماله عُمير بن سعد ^(١) وفيه يقول عمر : وددت لو أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذي قال على منبر حمص : « لا يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء الحق وأخذاً بالعدل » وهذا من أبعد مرامي الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج في سياستهم إلى شيء من الشدة . كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما جبيت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله قال : اعتنتي حتى أتيت السلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم حماية فيهم : حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به . قال فما حدثنا بتي . قال : لا . قال جددوا لعمير عهداً . فقال عمير : لا عملت ولا لأحد بعدك ، والله ما سلمت بل لم أسلم . لقد قلت لنصراني أي أخراك الله . فهذا ما عرضتني له يا عمر ، وإن أشق أيامي يوم خلقت معك يا عمر . وكان إذا استعمل عاملاً كتب عهده ^(٢) : « وقد

(١) طبقات ابن سعد (٢) أسد الغابة لابن الأثير

بعثت فلانا وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة بن اليمان على المدائن كتب في عهده أن اسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما سنئت . قال أسألكم طعاما آكله وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب اليه ليتقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه كمن له في الطريق فلما رآه عمر على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فعمر إذا لم يختار للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمتة ورهده . وكان كثيراً ما يستعمل قوما ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور ^(١) فى كثير من الوقائع حتى قال يوماً لأصحابه أشيروا علىّ ودلونى على رجل أستعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ما عندكم ، فإنى أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثى فنشير على أمير المؤمنين به ، فأحضره وولاه ، فوفى فى عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر فيه وزاد على عمله ، فشكر عمر من أشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمى أن سير إلى عتبة بن غزوان فقد وليتكم عمله ، واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وإنى لم أعزله ألا يكون عفيفاً صليماً شديد البأس ، ولكن ظننت أنك أغنى عن المسلمين فى تلك الناحية فاعرف له حقه . ولا سير عمر عتبة ابن غزوان إلى البصرة ليقاتل من بالأبله من فارس قال له : انطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة الهجيم ، وأمره أن يشاور عرجة بن هرثمة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكايده . وعزل عن بعض ولاية الشام شرحبيل

(١) سراج الملوك للطوطشى

ابن حسنة واستعمل بدلا منه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الأشهاد أنه لم يعزله عن شيء هجّته به بل أراد رجلا أقوى من رجل . وبعث المغيرة بن شعبة عاملا على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سألّه عن الضعيف والقوى فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما القوى المشدد فقوته لك وللمسلمين وشداده عليه . وعزل عامله على ميسان النعمان بن عدى لأنه بلغه أنه قال أحيانا في التشبيب تشير إلى أنه يتعاطى الراس ، مع أنه عارف بأن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر . وعزل زياد بن أبي سفيان فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانة؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن هذا ، ولكنني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقالك . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاور طلحة الأسدي وعمرو بن معدى كرب في أمر حربك ، ولا تولهما من الأمر شيئا ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعتة . وكتب إلى النعمان ^(١) بن مقرن أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطلحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولهما شيئا من الأمر . وبعث مع أبي عبيد بن مسعود سليط بن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصاح لها إلا الرجل المكيث .

وسأل عمر عمرو بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه فقال : متواضع في جبايته ، عري في نمرته ، أسد في تأموره ^(٢) ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم الامة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة . ولما شكأ أهل الكوفة سعدا عزله عمر ولم تأخذه به هوادة ، لأن الغاية انفاذ العمل النافع للناس على يد أي كان من عماله ، وأن لا يفتح للمسلمين بابا للشكوى . وخير ضروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) التأمر عرين الأسد والهمة والخيرة والحياء جلسة خاصة بالعرب

القاتلين . وسعد هذا هو الذي كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق اليه فأوصاه عمر بقوله يا سعد سعد بنى وهيب لا يفرانك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفيهم وضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي منذ بعث إلى أن فارقتنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظي اليك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين . وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق .

كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحسّ باعتداء أو شبه اعتداء وقع على أحدهم يشتد على المعتدين في تلك الناحية ليبقى للعامل هبة توقره في الصدور ؛ ومهابة يلجم بها العامة والخاصة . وقع له مرة أن حسب^(١) أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوّضهم إماماً مكان إمام كان قبله فخصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، ودعا عليهم . ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذي يتجرى في انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ، بل يجعل بعضهم رقبيا على بعض ، وله عليهم سلطان دون كل سلطان . شكّا عتبة بن غزوان^(٢) تسلط سعد بن أبي وقاص عليه فسكت عنه عمر ، فأعاد عتبة ذلك مراراً ، فلما أكثر على عمر قال : وما عليك يا عتبة أن تقر بالإمرة لرجل من قریش له محبة مع رسول الله وشرف . فقال له عتبة : ألسنت من قریش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولي محبة مع رسول الله قديمة لا تنكر ولا تدفع . فقال عمر : لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع إليها أبداً . فأبى عمر إلا أن يردّه فردّه فثأت بالطريق . وهذا من تأثير عمر في

(١) حصه رجمه بالحصار واستعمل في كل رى مطلقاً (٢) طبقات ابن سعد

عماله ومعاملته لهم كما تريد المصلحة لا كما يريدون مثال آخر يخالف هذا — والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان — خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول، فقال عبادة لا أسألك بأرض واحدة أبداً ورجل إلى المدينة . فقال عمر : ما أقدمك . فأخبره . فقال : ارجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه ، ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة . كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه عن جمهور الناس بشيء في لباسه ومركبه وحركته ، يختلط بالشعب كأنه واحد منهم ، ومع هذا كان الناس يخافونه ، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم إن كان من أرباب السلطان . ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى إنه أخاف الأبقار في خدورهن . فقال عمر : إني لا أجد لهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون ما لهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتقي . وقال عمر : قد أنزلنا وإيل علينا أي ولينا وولى علينا . معناه قد ولينا فعلنا ما يصلح الولى ، وولى علينا فعلنا ما يصلح الرعية .

وما أرانا نعد عن الصواب إذا حكمنا أن سطرّاً عظيماً من وقت عمر في ولايته كان يصرفه في سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم في الإدارة والسياسة والقضاء على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به في هذا القرن أعرق الدول الحديثة في المدنية وأفضلها نظمها الإدارية والدستورية . ولعل في الناس من يقول إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر ، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال ، وادخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحريمهم مُتَمَع الحياة ، ولا توليهم منه غير الحفاء والخشونة في المعاملة . نعم هكذا كان عمر ، وهكذا وضع أساس الملك الإسلامي ؛ هو لا يحوز إغناء أفراد بإفقار أمة ، ولا أسعاد فئة

بإشقاء مجموع . كان ممن يشتركون رضا العامة بمصلحة الامراء^(١) ، فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد ، يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس ، فكان حب المساواة لا يعدله شىء فى أخلاقه . اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يسوئى بينهم فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قتل العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقتضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمر أن يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذهم منهم . مرّ ببناء يبنى^(٢) بحجارة وجص فقال : لمن هذا؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ! وشاطره ماله . وكان يقول : لى على كل خائن أمينان الماء والطين . ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لانه فشت له فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوات لم تكن له حين ولى مصر ، فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرع ومتجر وأنها أثمان خيل تنابجت وسهام اجتمعت وأنه يصيب فضلاً عما يحتاج إليه لنفقتة ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أبا هريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عتروا أنفاً وادعى أن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وأنه أبحر فقال له عمر : أنظر رأس مالك ورزقك فخذ ، وأجعل الآخر فى بيت المال . يريد بذلك أن يحصر العامل وكده فى خدمة أهل عمله ، أما الاتجار وتثمير الأموال فهذا لبس من شأن عمال الدولة ، فإن هؤلاء ما يتبلغون به من رزق . وكان يرى فى مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والإدلال على الرعية . ومن شاطره أيضاً النعمان بن عدى عامله على ميسان ، ونافع بن عمرو الخزاعى عامله على مكة ، ويعلى بن منية عامله على اليمن ، وسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله فى

(١) تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الحنظرى (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة

الشام ، وآخذ خالد بن الوليد لأنه أمره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه
ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فأجاز الأشعث لشعره فغضب عمر ، وكان أحد
الشعراء كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونفزو إذا غزوا فأنتى لهم وفر ولسنا بذى وفر
إذا التاجر الهندى جاء بفسارة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وحدته سيرضون ان شاطرهم منك بالشر
فساطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقته به ^(١) ولم ينتطح فى
عمله عنزان . شاطر عمر سعداً وعمرأ وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام ، استكثر
عليهم أن ينعموا وإن كان الأول فاتح العراق والثانى فاتح مصر والثالث فاتح الشام .
وقيل لعمر إن عياض بن غنم ، وهو من كبار الفاسقين ورجال الإدارة فى
حكومته ، يتوسع كثيراً فى إعطاء المال بحيث لا يقل فى هذا المعنى عن خالد بن
الوليد فقال : إن ذلك من شأن أبى عبيدة ، وعياض من أقرباء أبى عبيدة . وعياض
ابن غنم هذا حاد صاحب دارا حين فتحت فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى
غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأناه هشام فاعتذر إليه ، ثم قال هشام لعياض : ألم
تسمع رسول الله يقول إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً فى الدنيا .
فقال عياض : قد سمعته ما سمعت ورأينا ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول
من أراد أن ينصح لذى سلطان عامة فلا يُبدِ له علانية ولكن ليخلُ به فإن
قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذى عليه . وإنك يا هشام لانت الجرى إذ
تجترى على سلطان الله فهلا خستيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله .
كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالمال ^(٢) بعد خمس ما كان يحتاج إليه ،
والمال يجي من أموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، وكانت النصارى واليهود

(١) طقت ابن سعد (٢) خطاط المقرئ

١ اقروا على ما في أيديهم من الأرض يعمرونها ويؤدّون خراجها ، ووضع في مصر عمرو على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم . وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف ورنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر في بعض السنين خراج مصر فكتب إلى عمرو : أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجكلاً وقوة في بر وبحر وأنها قد عالجها الفراغة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، فمعبت من ذلك وأعجب مما عجببت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبيل ذلك على غير قحوط ولا جدوب إلى آخر ما قال له ، وهزّ أعصابه بكلمات قاسية فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً وقال : فامض في عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب إليه إنى لم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج قائماً هو في المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون . . فأجابه عمرو : إن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فمطرت للمسلمين فساكن الرفق خيراً من أن تحرق^(١) بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه .

ومع هذه الهيمنة من عمر على عماله نراه يشهد لعمرو بن العاص بحسن السياسة دليلاً على تقديره عامله قدره . وكان من رأى عمرو بن العاص في سياسة مصر أن

(١) حرق بالشئ ككرم إذا حمله ولم يحسن عمله

الذى يُصلح هذه البلاد وينميتها ، ويقرّ قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتربتها . وكان عمر يقول إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر في حسن السياسة بين رجال العرب ، دهش قبط مصر بحمّيل عمله ، فدخلوا في الاسلام كثيراً . وأدى به التسامح أن رفع رجل نصراني إليه أن غُرُفة بن الحارث الكندي من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضربه فوق أنفه فقال عمرو للصحابي : إنا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابي بما فعل ، فقال غرفة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبي وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، وإن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنحكم بينهم وإن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت . خطب يوماً في الجابية من حوران فما قاله : ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولائي الله إلا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ويعطى في حق ويمنع من باطل . كتب معاوية الى عمر يصف له سوء حال الشام فكتب اليه في مرّة حصونها وترتيب المعاتلة فيها ، وإقامة الحرس على منازيرها واتخاذ المواقيد^(١) لها . جاء عمر الشام مرات أربعاً يكشف حال عمالها ويعنى بقسمة الأرزاق ويسمى الشواتي والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ، ويسد الفروج والمسالح^(٢) في كل

(١) المناظير قبب مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ويقام فيها حراس يوقدون النيران عند ما يرون أقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المناظير الذين يلونهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل . ويقال لهذه المواقيد المناوير أيضاً (التعريف بالمصطلح الشريف) (٢) المسلحة الثغر والمراق وجمعه مسالح وهي مواضع الخفاة وسموا مسلحة لأنهم يكونون ذوى سلاح أو لأنهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر والمراق يكون فيه أقوام يرقبون العدو ولا يظهرونهم على غرة فإذا رأوهم أعلنوا أصحابهم لينأهوا له . والفروج الثغور أى موضع الخفاة

كورة ويستعمل أناساً على السواحل من كل كورة أو يقسم الموارث بعد طاعون
عمواس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وقيل إن عماله استقبلوه
مرة بأبهة فنزل وأخذ بالحجارة ورماهم بها وقال : ما أسرع ما رجعت عن رأيكم إياي
تستقبلون في هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو فعلتم هذا على رأس المائتين
لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله في الشام عن الموكب الثقيل الذي
كان له قائلاً : إنا في بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرههم
من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك قتت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت . فلم
يأمره به ولم ينهه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : لَحَسَنٌ ما صدر من هذا
الفتى عما أوردته فيه فقال : لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه . وقيل إنه
قدم معاوية على عمر من الشام^(١) وهو أبص^(٢) الناس فضرب عمر بيده على
عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك فقال : هذا والله لنشألك بالحمامات
وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك . وقال عمر : أئن عشت إن شاء
الله لأسيرن في الرعية حولاً فإنني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا
يصلون إليّ ، وأما عيالهم فلا يرفعونها إليّ ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم
أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى
الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعد من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت
تفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها خطب مرة فقال : (أعطوا
الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ فإنه ليس بيني وبين
أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على عتبتكم ، وأنتم أناس
عامتكم حضر في بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه)

(١) الكامل للبرد (٢) يقال أبيض بعض شديد البياض أو رقيق البشرة الذي يؤثر فيه كل شيء.

يريد أن يعلم الناس أن لا يكثرُوا من الرجوع الى الحاكم للفصل بينهم في خصوماتهم ، ليصرف وقته في التفكير في أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على صاحب السلطان ، وأن يعرفهم حالة الحاضر والبادي منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا يسرفوا لأنهم فقراء . ولطالما قال لقومه أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليل في رفق خير من كثير في عنف . يريد أن يسوق الناس الى المدنية بتؤدة على صورة فيها تدرّيج . وكان يقول من كان له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها وإنه يوشك أن يحجى ، من لا يعطى إلا من أحب . ونظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت لحقه بالدرة وقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله . وكان يقول ليس قوم أكيس من أولاد السراري لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم .

وكان غرام عمر أبدأ أن يلحق قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ، ولطالما قال لكتابه وعماله إن القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لغد فإنكم إذا فعلتم ذلك تذاءبت ^(١) عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدأوت ولا بأيها تأخذون . وما كان يرى ابعاد العامة عن المجالس العالية لئلا تفوتهم الفوائد وليتربوا على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم . ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أى أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى العطايا على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولبن بعدهم إلى الحديبية وبيعة رضوان ثم لمن بعدهم ولأهل القادسية واليرموك وأعطى نساء النبي

وغيرهم ورزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاة والشعراء . وحلف على إيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق به من أحد . والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام ، والرجل وحاجته ، والله لأن بقيت لهم لياأتين الراعى بجبل صنعاء حفظه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال ما يحلّ للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وكس ولا شطط ، وكسوتهم وكسوته لشتاء والصيف ، ودابتان إلى جهاده وحوادثه وصلاته وحججه وعمرته ، والقسم بالسوية وأن يُعطى أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم عند الشدائد والنوازل ، حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفء . وكان عمر إذا احتاج أنى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيحتمل له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلب من أحد أصحابه أن يقرضه مالا فقال له ما يمنعك أن تقترض من بيت المال فأجابه إنه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فإنه لحرصه على ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

ومما تعلق به همة عمر إحداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع في الفتوح فهو أول من حمل الدرة ^(١) وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم ، دونها له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب

(١) الدرة كالمحصرة أو خبزاة صغيرة يضرب بها

يُسكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ماتعلق
بمحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق
بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى المكان الذي يجلس فيه القائمون على
هذه السجلات والأضابير والطوامير . وثبت أنه كان له سجن^(١) وأنه سجن
الخطيئة على الهجو وسجن ضيقاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنزاعات
وشبههن . وضر به مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق ، وكتب أن لا يجالس أحد فلو كانوا
مائة تفرقوا عنه حتى كتب اليه عامله أن حسنت توبته ، فأمره عمر فخلّى بينه وبين
الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس في المسجد في غير
أوقات الصلاة ، وبني في المسجد رحبة تسمى البطيحا ، قال من كان يريد أن يلغظ
أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد في أيامه لغير
الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات .
ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء
بيوت للمكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم^(٢)

وضع عمر أول ديوان في الاسلام للخراج والاموال بدمشق والبصرة والكوفة
على النحو الذي كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع في الاسلام هو ديوان
الأنشاء^(٣) ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ودواوين
مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين . والسبب في تدوين
الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً خمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل
عليها حراساً في المسجد فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين
يكتبون فيها « الأسماء ومالو واحد واحد وجعل الأرزاق مشاهرة » وجعل عمر

(١) تاريخ يعقوبي (٢) التراتيب الادارية لعبد الحى الكتانى (٣) نهاية الارب للسيورى
وصح الأعشى للقلقشندي

تابوتا أى صندوقاً لجمع صكوكه ومعاهداته . وجند الأجناد أى ألف الغيالق ، فصير فلسطين جنداً والجزيرة جنداً ، والموصل جنداً وقنسرين ^(١) جنداً ، وأصبح كل جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ، يقبضون أعطياتهم من البلد الذى نزله ، فأصبحت الجندية خاصة بفئة من المسلمين ، ويسير الناس بعضهم وقضيضهم إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يعملون كلهم فى المسالـح بل يترك بعضهم فى البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يترك فضل فى بيوت الأموال خارج الحجاز يستخدم فى طارىء إذا طرأ . وما كانت الصوافى تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها فى بيوت الأموال فى الشام والعراق ومصر ، وجزءاً عظيماً من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا إليها . وعمر هو أول من لقب بأمر المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول من أحدث التاريخ الهجرى فأرخ سنة ست عشرة بهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال اليعقوبى وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صكاً كما من قراطيسه ثم يحتم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكك . ^(٢) وعبر أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء . ^(٣) وكان أول من معبر الأمصار ، معبر المصرين البصرة والكوفة ، وكان إذا جاءته القضية المعضلة ^(٤) قال لعبد الله بن العباس : إنها قد طرت عينا أفضية وعضل فأنت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو لذلك أحداً سواه . وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوراه وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته فى الإدارة باقية إلى

(١) أفضية رسول الله للقرطى (٢) المعارف لابن قتيبة (٣) كانت العرب نسب إلى قتلها فلما جلا الاملازم وغلب عليهم سكنى القرى والمدن حدث فيما بينهم الانتساب إلى الاوطان كما كانت العجم . وأوضاع كثير منهم أنسابهم فلم يبق لهم غير الانتساب إلى أوطانهم « اس الصلح » ٤١ أساء « الف » لابن الأثير

غيره ، لأنه يتروى ويعمل بأراء أهل الرأي . ولما أرسل عبد الله بن مسعود الى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذي ولاه الامارة كتب الى أهل العراق « وقد جعلت على بيت مالكم عبد الله بن مسعود وآثرتكم به على نفسي » وقد يبعث إلى بعض الأقطار عاملاً على الصلاة والحرب ويسميه أميراً^(١) وعاملاً على القضاء وبيت المال ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل في العراق ، أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسم العائلات في الشام يختلف عن اليمن ، وعامل البحرين لا يكون كعامل اليمامة وقد يبعث أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لاحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سواها : أخاف أن تكونا حملتا الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن الى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فاني انما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيهم بينهم ويرفعوا الى ما أشكل عليهم من أمورهم .

وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ، ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث الى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف . كان أبو بكر يساوي^(٢) الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان

(١) كان المغيرة بن شعبة أول من سلم عليه بالامرة وكانوا يكتنون أمراهم فقال : ينبغي أن يكون بين الأمير والرعية فرق ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه ففعلوا وابتدئ به سائر المسلمين في أمراهم « لطائف المعارف للثعالبي » (٢) سراج الملوك للطوطوشى

عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . ولم يقدر عمر الأرزاق إلا في ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولائه وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه في كل شهر . وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم ، وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجرة ، وإنما فضل عماراً لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأما^(١) عبد الله بن عمر السعدي فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلي من أعمال المسلمين أعمالاً فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك . قال : إن لي أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت ، وكان رسول الله يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه مني . فقال النبي : خذه فتموله وتصدق به ، فما حاك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذ ، ومالاً فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه في الدين ويُجَدِّثُ في إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يُسمَّى القاري من الصحابة غيره فل له : هل لك في الشام فإن المسلمين تُزفوا وإن العدو قد ذُتروا^(٢) عليهم . وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ^(٣) بن جبل إلى الشام : لقد أخذ خروجه بالمدينة وأهلها بالفقه ، ولقد كنت كلبت أبا بكر رحمه الله أن يخلصه لحاجة الناس إليه فأبى عليّ وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلسه .

وفي كتب عمر إلى قضاة وعماله كأبي موسى الأشعري والقاضي شريح وأبي عبيدة

(١) تيسير الوصول لأن الديبع (٢) نزفوا فتوا ودأر عليه أحد (٣) طهت ابن س.

ومعاوية وغيرهم قوانين في التشريع والإدارة سنّها للمسلمين لا تزال الى يوم الناس هذا هي المقول عليها، ورسالته في القضاء الى أبي موسى الأشعري جمع فيها «جمل»^(١) الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً، ولا يجد بحق عنها معدلاً، ولا ظالم عن حدودها محيصاً «ولقد قالوا: «إذا»^(٢) اختلف الناس في أمر فانظر كيف قضى عمر، فإنه لم يكن يقضى في أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور» وكان أبداً يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيماً من دون استشارتهم ويقول: الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المرمين، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض. هذا ولو وضع علم عمر في كفة كما قال ابن مسعود، ووضع علم أحياء العرب في كفة لرجح بهم علم عمر. وأنشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبي سلمى فلما بلغ قوله:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو^(٣) يفار أو جلاء

جمل يتعجب من علمه بالحق وتفصيله بينها ويقول: لا يخرج الحق من إحدى ثلاث، إما يمين أو محاكمة أو حجة

وكانت المدينة في أيامه أشبه بمدرسة يتخرج به فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره في الجملة، وقلما أخطأت فراسته في الناس، وهو المثل الأمثل في حده. كان كعب بن سور حالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكي زوجها فقال لكعب: اقض بينهما، فلما قضى بما أعجبه وما لم يحط به نال قال لكعب: إذهب قاضياً على البصرة. ساوم عمر بفرس فركمه لبشوره^(٤) فعطب فقال للرجل: خذ فرسك. فقال الرجل: لا. قال: احمل بيني وبينك حَكماً. قال الرجل: شريح.

(١) الكامل للبرد (٢) طبقات ابن سعد (٣) المار تافر الى رجل يتبين حجح الخصوم ويحكم بينهم والخلاء ان يكشف الامر ويحلل فتعلم حقيقة يقضى به لصاحبه دون حصار ولا يمين (٤) من شار لاداة شورا وشورا رامها وقيل ركبها عند العرص على مشقتها وقيل احتريها يطر ما عدها

فتحا كما إليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين خُذْ ما ابتعت ، أو رُدِّ كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ، سر الى الكوفة فبعثه قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقي شريح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري ، وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قُرّة الكندي ، وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخُدري ، وعبد الله بن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعُمَيْر بن عوف ، وعُمَيْر بن وهب بن خلف الجُمحي ، وعتبة بن مسعود ، وعدى بن أبي الزغباء الجهني ، وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري ، وواقد بن عبد الله التيمي ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد في علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى أبي موسى الأشعري : إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسمة . يعني أن عمر أوصى بالأعيان ، وإن كان يكره الشفاعة والوساطة . فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها فأنهره عمر وسبه وقال : أتريد أن يظلم الناس وهل هو إلا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم . ؟

كان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد . كتب إلى أبي موسى الأشعري « إني قد بعثت اليك مع غاضرة بن سَمُرَةَ الغنبري بصحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتي درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب إلى في أي يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجسد والاهتمام

والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتى درهم إذا جد فوصل البلد الذى عين له فى الأجل المضروب وإلا فيحرم أجرته . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أيضاً^(١) إذا اتاك كتابى هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك ان كاتب أبى موسى كتب إلى عمر (من ابو موسى) وكان عليه أن يقول (من أبى موسى) . ودبر عام الرمادة (١٧ — ١٨) تدييراً إدارياً ناجحاً عند ما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فأتته القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسّع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدايره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدايره الإدارية أنه^(٢) « حَجَرَ عَلَى أَعْلَامِ قَرِيشٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْخُرُوجَ مِنَ الْبِلَادِ إِلَّا بِإِذْنٍ وَأَجَلٍ فَشَكَّوهُ فَبَلَّغَهُ فَقَالَ : أَلَا إِنِّى قَدْ سَنَنْتُ الْإِسْلَامَ سَنَ الْبَعِيرِ يَبْدَأُ فَيَكُونُ جَدْعًا ثُمَّ ثَنِيًا ثُمَّ رُبَاعِيًا ثُمَّ سَدِيسًا ثُمَّ بَازِلًا ، أَلَا فَهَلْ يَنْتَظِرُ بِالْبَازِلِ إِلَّا النِّقْصَانُ ، أَلَا فَإِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَزَلَ^(٣) أَلَا وَإِنَّ قَرِيشًا يَرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ مَعُونَاتٍ دُونَ عِبَادِهِ ، أَلَا فَأَمَّا وَابْنُ الْخَطَّابِ حَتَّى فَلَا . إِنِّى قَائِمٌ دُونَ شَعْبِ الْحَرَّةِ أَخَذْتُ بِحِلَاقِمِ قَرِيشٍ وَحُجَّزَهَا أَنْ يَتَهَافَتُوا فِي النَّارِ » . هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً فى إقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس إليه : حدّ فى الحُر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن أحد قبطها استعدها عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتّى بالشارب على عهد رسول الله وإمارة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين .

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ الطبرى (٣) بزل البعير بزولا نظر فانه أى انشق بدخوله

ولما ضعف نصاب الشهادة على المغيرة بالزنا سُرى عنه لانه ما أراد أن يرحم أحد من الصحابة^(١)، وأراد أن يحد جَبَلَة بن الأيهم من ملوك غسان لان رجلا فزارياً^(٢) في الحج وطى على إزاره فلطمه جَبَلَة فهُشِمَ أنفه، وشكاه الفزارى فاراد عمر جَبَلَة على أن يقتدى نفسه أو يأمر الرجل بلطمه، فقال جَبَلَة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكنا ، وسوى بين الملك والسوقة في الحد . ففر جَبَلَة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس في القضاء مهما علت منزلتهم ، وبلغه عن بعض عماله وهو في دار الحرب أنه تعدى حداً من حدود الله فأغضى عنه لئلا يعتصم ببلاد الروم .

وكان يعرف أن الرسول قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً ، فسكت عمر عنهم ، وراعى العهود التي أعطاهما الرسول لهم ، ولما كان من جملة شروط نصارى نجران أن لا يأكلوا الرما أمر بإجلائهم ، واشترى منهم أرضهم وأوصى بهم أهل الشام والعراق . ولما انطلق انصارى بنى تغلب هارين من الجزية أضعفها عليهم^(٣) وشرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم ، ولم يسمع لقول أحد بى تغلب أنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية ، وقوله له مهدداً : لا تعن عدوك عليك . وكان يتحاشى استعمال النصارى وعرضوا عليه كتاباً منهم فأبى أن يستعملهم . وكان إذا أراد^(٤) أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته في شيء ، وربما هصر بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . قسم^(٥) عمر مروطاً^(٦) بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد

(١) فتوح البلدان للبلادى (٢) تاريخ أئى العداء (٣) المعارف لاس قتيبة (٤) تاريخ الضرى

(٥) تيسير الوصول لائن الديبع (٦) المروط كساء من حر أو صوف يؤتزر به

فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك ^(١) فقال : أم سليط أحق به فإنها من بايع رسول الله ، وكانت تزفر ^(٢) لنا القرب يوم الأحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم تقبلها منكم . وردت عليه امرأة فرجع اليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يُجرى عليهم رزقا يكفيهم . كتب مرة إلى الغيرة بن شعبة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا في الجاهلية والإسلام ^(٣) فأرسل إلى الأغلب العجلي فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لبيد ابن ربيعة فقال أنشدني . فقال : إن شئت أنشدتك مما عفى عنه من شعر الجاهلية قال : لا أنشدني ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال : أبدلي الله مكان الشعر هذا . قال فكتب بذلك إلى عمر فكتب اليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا لبيد بن ربيعة فأنقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها في عطاء لبيد .

نهج عمر بن الخطاب لمن يخلفه النهج الذي يجب السير عليه في تدبير الملك . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه ^(٤) بتقوى الله لا شريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردة العدو وحياة النفي ، وأن لا يحمل فيهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ،

(١) يريد أم كلثوم بنت علي (٢) ترمر القرب تحيطها (٣) الاشراف لابن أبي الدنيا (٤) البيان والتبيين للجاحظ

وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاقل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وتغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد في أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه في أحد رافة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالي على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لغيره في ظلم أهل الذمة ، وأنشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ويجلّ كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم ، وإن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالقي فيغضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجرمهم في البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال ذولة بين الأغنياء منهم ، ولا يفلق بابه دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم .

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان حافظ على الأوضاع التي وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأ منا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » وكان أول كتبه إلى عماله : « فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وأن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم . فتعطوهم ما لهم وتأخذون بما عليهم ، ثم تشنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم » وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلسها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم ابن ظلمهم » وكتب في الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن

يشكّوهم ، وكتب إلى الناس في الامصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فإني مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله . »
واعتمد عثمان لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل ، وفي الولايات على بعض من كانوا عمالاً لعمر ثم على أناس من أهله وعشيرته ، ومن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يُجمعون له عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً اتبع سيرة العمرين^(١) في الحكومة . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة . وكثر المال في أيامه فكان لا يتوقف في إفاقته . قيل انه باع غنائم افرقية بخمسمائة الف دينار وأعطاهها مرواناً ولم يطالبه بها ، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وانما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً ويحثّ عماله على الجود . قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتمخ خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهي أعمال غزنة فقال له عثمان : صلّ قرابتك وقومك . ففرق في قريش والأنصار شيئاً عظيماً من الأموال والكسوات^(٢) . وأرسل الى علي بن أبي طالب^(٣) بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل الى عليّ بثلاثة آلاف درهم . قال :

(١) يقولون العمران لأبي بكر وعمر لأن أهل الجبل نادوا لعلي بن أبي طالب : أعطنا سنة العمرين ، وعمر اسم مفرد لا كإني بكسر وإنما طلبوا الخفة « الكامل للبرد » (٢) أسد الغابة لابن الأثير (٣) طبقات ابن سعد

كرهت أن أغرق ولم أدر ما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث اليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها . قال : فراح على إلى المسجد فاتتهى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر ، هذا الحى من قريش . فقال على : هو سيد فتيان قريش غير مدافع . وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته .

ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب إليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينفر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلها ولا نانتها فنكتب إليه عثمان : أما بعد فضّل أهل السابقة والقُدْمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تشاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل .. اه .

وكانت ^(١) مغازى أهل الكوفة في زمنه الرىّ وآذر بيجان وكان بالشعرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بآذر بيجان وأربعة بالرىّ وكان بالكوفة اذ ذاك اربعمائة ألف مقاتل وكان يغزو هذين الشعين منهم عشرة آلاف في كل سنة فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة .

وضعت الإدارة في النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته ، ولأنه لا يستطيع من كان في سنه أن ينظر في جميع المسائل . واستغل بعض كبار العال أطعامهم في الولايات ، وشاغب المحرومون على المنصوبين ، وكثيراً ما كان يصير على تنفيذ أوامره لا يبالى كثيراً بالشكاوى لعلمه بأنها صادرة على الأكثر عن أغراض شخصية ، وما نفع اللين ولا الشدة يوم حُمّ القضاء فكان من قتله ما كان . ومن أهم

الأسباب في مقتله غلطة إدارية بدرت منه ساق إليها الغضب والعجلة . قالوا انه اجتمع^(١) أناس من أصحاب النبي كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وما كان من تطاوله في البنين ، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبنى عمه من بنى أمية أحداث وغلطة ، لا صحة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمر ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتم ، وتعطيله الحد عليه وتأخيره ذلك عنه « جلده حين شهد عليه بشرب الخمر وأنه تعاطاها » وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة ، وما كان من إداره القطاعات والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحة من النبي ثم لا يفزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما كان ضرب الخليفين قبله بالدرة والخيزران . ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان فأستأذن عليه فأذن له في يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بنى أمية فدفع اليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا ؟ قال نعم . قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معي نفر تفرقوا فقرأاً منك قال : ومن هم ؟ قال : لا أحرك بهم . قال : فلم اجترأت عليّ من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جراً عليك الناس وانك إن قتلته نكلت به من وراءه . قال عثمان : اضربوه

(١) الامامة والسياسة المنسوب لاس قتيبة

فضر به وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه ، ففشى عليه لجروحه حتى طرحوه على باب الدار . وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم . ذلك لان عماراً كان من أعظم الصحابة ومن النقباء في مجلس شورى الرسول . ومناقبه كثيرة في الإسلام ، فمثل هذا لا يضرب على هذه الصورة البشعة ، ومكانته مكاتته بين المسلمين . والمثل العربى يقول العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة أو الإشارة ، ومعاملة عمار بهذه القسوة ساقته إلى ان كان من أعظم من ألّب الناس على عثمان وخدم علياً ضروب الخدم حتى قتل في صفين .

ومن عمال عثمان عبد الله بن الحضرمي ، والقاسم بن دبيعة ، وعبد الله بن عامر ، وجبيب بن مسleme الفهرى ، وأبو الأعور الأسلمى ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزنى ، وسمك الأنصارى ، والقعقاع بن عمر ، وجريز بن عيلان ، والأشعث ابن قيس ، وعتيبة بن النهاس ، ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ، ومعاوية بن ابى سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم . وكان عثمان ست سنين في ولايته وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب وكان عمر رجلاً شديداً ^(١) قد ضيق على قريش أنفاسها لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظماً له وإجلالاً وتأسياً به واقتداءً ، فلما وليهم عثمان ولهم رجلين ثم أنكر الناس عليه أشياء أشراً وبطراً . قال ابن عمر : لقد عيت عليه أشياء ، ففعلها عمر ما عيت عليه .

أما طريقة علي بن أبى طالب فكانت أيضاً في الإدارة طريقة من سبقوه إلى الامامة : يولى العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله . ويدعو عماله إلى التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية ويضع لهم المنهاج الذى يسرون عليه . أوصى

(١) الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

أحد عماله بأهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تمنع لأحد منهم عرضاً في شيء . من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشر النخعي وهو بما لم ينفذ وبقى في حيز الأقوال ، لمقتل الأشر قبل أن يبلغ مصر قوله : وتنفذ أمر الخراج بما يصلح اهله فإن في إصلاحه وصلاحيهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً ... وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالمقاء ، وقلة انتفاعهم بالعر .

ومما جاء في هذا الكتاب : ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختصاراً ولا تولهم محانة وآثرة ، فإنهم جماع من شُعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقَدَم في الإسلام المتقدمة . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع إشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تنفذ أعمالهم وأبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدودهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم سيطر يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، أكتفت بذلك شاهداً عسقط عليه العقوبة في بدنه . . . وجاء في هذا الكتاب أيضاً : ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاؤل وقلة إنصاف في معاملته ، فاحسم مادة أولئك

يقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك^(١) قطيعة ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم.

ومن وصية لعلي بن أبي طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهي أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط آياتهم . ثم امض اليهم بالسكينة والوقار . حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تدخل^(٢) بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلنى اليكم ولى الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل الله في أموالكم من حق فتودوه الى وليه . فان قال قائل : لا . فلا تراجعوه وان أنعم لك منكم فانطلق معه من غير أن تضعفه ، أو تؤعده ، أو تعسفه أو ترهقه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فان كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فان أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تنفر عنها ، ولا تسوان صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره . ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره . فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وقاله لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذى صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله . ولا تأخذن عوداً^(٣) ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة^(٤) ولا ذات عوار . ولا تأمنن عليها الا من تثق بدينه . رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله الى وليهم فيقسمه بينهم . ولا توكل بها الا نصحاً

(١) الحامة بتشديد الميم الخاصة (٢) لا تقص (٣) العود المس من الال (٤) المهلوسة المريضة قد هلسها المرض وأفى لحما . والحوار العيب

شفيقاً وأميناً جفياً . غير معترف ولا مجحف ولا ملغب ولا مُتعب^(١) . ثم أخذوا
الينا ما اجتمع عندك نصيرته حيث أمر الله ، فاذا أخذها أمينك فاعز إليه أن
لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يُمصر^(٢) لبنها فيضر ذلك بولدها ،
ولا يجهدها ركوباً ، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها ، وليرفه على اللأغب ،
وليستأن باليقب والظالم^(٣) ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن
نبت الأرض الى حواد الطرق . وليروّحها في الساعات ، وليهلها عند النطاف^(٤)
والأعشاب ، حتى تأتينا باذن الله مدناً منقبات^(٥) غير متعبات ولا محهودات ،
لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فان ذلك أعظم لأجرك وأقرب
لرشدك ان شاء الله »

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة المخالفين والموافقين إذا جعله
كل عامل دستوره في عمله قال : اما بعد فإن دهاقين^(٦) أهل تلك شكوا منك
غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونطرت فلم أرهم أهلاً لأن يذنبوا لشركهم ، ولا أن
يقصوا ويحفظوا لعهدهم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداول
لهم بين القسوة والرافة ، وأخرج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء ان
شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولي أخبرني
بعجب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه أن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك
كثيراً من الخراج وقلت له : لا تعلم بذلك أمير الأمنين . يا زياد وأقسم بالله إنك

(١) المعف دو العف بالصم وهو صد الرفق، والمجحف الذي يسوق المال سوقاً عيفاً فيجحف به
أى يهلكه، والملب المتعب واللعب الاعياء (٢) المصرب حب ما في الصرع جميعه (٣) الطالع
الذي طلع أى عمر في مشيه، والمقب دو القب وهو رقة حب العير حتى تكاد الأرض تحرجه (٤)
النطاف جمع نطفة وهى الماء الصافي القليل (٥) المدن بالتحديد السبل واحدها دند ومقبات ذوات
بقى وهو المح في العظم والشحم في العين من السمن وأقمت الابل وغيرها سميت وصار منها بقى وناقة
مقبة وهذه الناقة لا تنى (٦) أرمات الأملاك من العجم

الكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة قليل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتلاً . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستخلف على عمالك واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالي وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب .

قال اليعقوبي ^(١) : إن علياً حكم بأحكام عجيبية حتى إنه حرق قومًا ودخن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد في السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجدّهما على فسق ، وكان يقول استتروا بيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الإمام هوادة . قالوا في القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا فإما مذبذب بعد وإما فداء ، وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغي وهو المذكور في سورة الحجرات ، ولم يسلّ الرسول هذا السيف في حياته وإنما سلّه عليٌّ في خلافته ، وكان يقول : أنا الذي علمت الناس قتال أهل القبلة ، وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخرى منها سيفه على أهل الردة وهو الذي قال فيه : من بدل دينه فاقتلوه ، وقد سلّه أبو بكر من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيفه على المارقين وهم أهل البدع كالخوارج . وروى عن علي أن النبي أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق على طائفة من الزنادقة فصبّ ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال عليٌّ : ويح ابن عباس لبغات عن الهنات .

وقالوا إن ^(٢) علياً كان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً . ودخل مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : يا صفراء اصفرّئي . ويا بيضاء

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) تاريخ أبي الفداء.

ايضاً وغرى غيرى ، لا حاجة لى فيك . وانتهى اليه أن أحد عماله يفرق ويهيب الأموال وكان عليها . ولامه أن قسم فى المسلمين فى قومه ومن اعتراه من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء . كما يقسم الجوز . فأجابه عامله إنه منذ ولى العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهماً ولا غيرها وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة . وقال على : لئن بقيت لنصارى بنى تغلب لأقتلن المقاتلة ولأسبين الذرية ، فإني كتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله على أن لا ينصروا أولادهم . ورأى على داراً للقاضى شريح عمرها فقومت عليه بثمانين ديناراً فوعظه وبكته ضمناً مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم . وكان يقبل الهدية ويكافئ بمثلها . وهو من أكبر قضاة الصدر الأول .

ومن مجموع هذه الفقرات من كتب على بن أبى طالب عرفنا متزعه فى تدبير الملك ، وشده على من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، وكان هديه هدى أصحابه الثلاثة من قبل ، ولكن التوفيق أخطأه ، استغرقت الفتى أيامه ، أكثر من التنظيم والإدارة . وقد الاستقرار فى البلاد للنزاع الذى قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ لا يعلم رجل فى الأرض متى ذكر السبق فى الاسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الاسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناصر الناس عليها ، كان مذكوراً فى هذه الخلال كلها إلا على .

ومما يعد من خطيئته الادارية مبادرته إلى عزل جميع عمال عمان ولم يتر بص بالأمر وصول البيعة اليه من أهل الامصار^(١) ، ولم يصح إلى تحذير المخدّرين ولا نصح الناصحين بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إباء تاماً كأنه قد وقر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يولوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد

(١) تاريخ الاسلام — الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار

منهم يوماً كاملاً نقص في دينه، ولو أنه أتاد في الأمر، وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاية شيئاً، لأن الخليفة هو الذي يعطى الولاية سلطانهم، فهو حر في اختيار عماله. ولما طالبه أصحاب الرسول بإقامة الحد على من شرك في دم عثمان بين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم، وقد ثارت اليهم العبدان وفاءت اليهم الأعراب، وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرزون منهم على شيء، وطلب اليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم. ومن عماله عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة واليه الصدقات والجند والمعاون وقُسم بن العباس وعبيد الله بن عباس وأبو الأسود الدؤلي وسهل بن حنيف وغيرهم.

إدارة الامويين

الإدارة على عهد معاوية بن أبي سفيان

ما عرفت للحسن بن علي طريقة في الإدارة لأنه لم يطل أمره غير بضعة أشهر وذلك في العراق والحجاز ، أما سائر الأقطار فكانت في يد معاوية ، ولكن عبد الله ابن عباس من أعظم أنصار علي كُتب إلى الحسن أن يولى أهل البيوتات والشرف يستصلح بهم عشائرهم حتى تكون الجماعة ، فان بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تدعو إلى ظهور العدل وعز الدين ، خير من كثير مما يحبون ، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ووهن الدين . حتى إذا كان عام الجماعة ونزل الحسن عن الخلافة وأجمع المسلمون على استخلاف معاوية (٤١ هـ) التفت هذا إلى سياسة الملك بحزم شديد وعزم أكيد ، وقد كان من قبل يسوس الناس تحت سلطان أعظم من سلطانه ، فأصبح يسوسهم بسلطانه مباشرة ، ولا يطلب منه حساب لغير نفسه وديانه . وساعد معاوية على حسن إدارة الملك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت منذ كان كاتب وحى رسول الله يشهد روعة الرسالة ، ويأخذ من البينة النبوية ، فتمتدق على أتم ما يكون من الكمال ، ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الغناء فولى الشام عشرين سنة تدرس^(١) خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فادهش من تولى أمرهم بحلمه وعلمه وثاقب رأيه وفطرته دهائه ، وكان أبوه من قبل يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويعرف ما يصلحهم ،

(١) تدرس وامتدس بالشيء احتك به وتمرس بالتواضع والخصومات مارسها

وعنه أخذ شيئاً في هذا المعنى ، والناسي . في مثل هذه الأعمال يتحنك في الإدارة ويكون إماماً في صناعته .

حافظ معاوية على أصول الرسول والراشدين في الإدارة ، وما حاد عنها إلا فيما قضت به للصالح ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سداجة البداوة إلى بحبوحة الحضارة ، وعرف فوائد الشورى فما كان يصدر في المهمات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعي أن يأخذ بآراء أشرف القوم ، وينزل على حكم وفود^(١) البلاد ، وله ولآل بيته محالس يعقدونها في المسجد الجامع ، تدور أبحاثها على سياسة البلاد وحكمها في الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات ، وما كان الأمويون إلى الاستبداد بالرأى في معظم حالاتهم ، ولا سيما فيما له مساس بصلاح الراعى والرعية .

كان معاوية يفض مشاكلة بالحسنى يلين للناس ويشفع الجملة بالاحسان ، يوليه كل نائب^(٢) نابه في قومه ، سيد مسود في أهله ، ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وإخراجها عن بيته بعد أن آلت إليه ، وما كان مع من يظلم رعاياه إلا شديداً ، ويستميل القلوب بالعطاء وبالإقناع أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتي هي أحسن ، وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجع في الناس وسائله اللينة ، يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة ، وهو القائل لا أضع سيني حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيبي وبين الناس شعرة ما انقطعت ، وقيل وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلّوها مددتها . وقال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . ومن المستحيل كم^(٣) الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس

(١) حفظ الشام للثولف (٢) الناب سيد القوم والنابه القوم ذو السطة (٣) كم العير شد منه

بالكلام والكلام كالسكامة ما يكمنه فيه الحيوان لتلا يعطس أو يأكل

غاية لا تدرك . فما دام الأمر يفض بالكلام ، ولا يقوم رجل جدّ يقلقل أمر الجماعة فالعالم أحرار في أقوالهم ، ومتى لجأوا إلى القوة وتطالوا إلى الفتنة انكفأ عليهم بقوته ، وما برحت همته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذاهب ، وهو يستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، ولا يأتى في إدارة الولايات والأعمال إلا السكفاة من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا أو يحب فلاناً من خصومه أو يغلظ في بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير أمر عنده .

فالساسة هي كل ما حصر فيه معاوية وكده ، ومن أجل توطيد دعائهم لجأ إلى طرق في الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص أو الوعاظ في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وذلك لما رأى علياً^(١) عند مُنْصَرَفِهِ من صفين قمت في الصلاة ودعا على من خالفه . فوقع في نفس معاوية أن يعامل علياً بالمثل وأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعوله ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله في عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة ، عهد بها إلى رجال يهتمون بسلطانته . وظلّ قصاص العامة يجتمع اليهم نفر من الناس يعظونهم ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم ، وكان القصاص إذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلى على نبيه . ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، وعلى أهل حربه وعلى الكفار كافة . ومن القصاص من كانوا يرفعون أيديهم في قصصهم كما كان سليم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من أمعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنّه لعن

على^(١) عقبى كل خطبة^(٢) لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه ، وما من أثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة . وجلب لعن الأمويين علياً من^(٣) البغضاء المستترة أكثر مما نالهم من الفائدة الحقيقية ، كما أخطأ معاوية باطلاق يد زياد في سياسة القمع في العراق على صورة هائلة تخالف ما كانت عليه سياسة معاوية من اللين ، وكان عليه أن يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة . واقتشر لعن الطالبين للأمويين ولعن الأمويين للطالبين في كل مكان ، وقد لعن الأمويون علياً على منابرهم نحو الف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا في عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا في الإيمان) الآية وقيل بل جعل مكان ذلك : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) وقيل بل جعلها جميعاً . وكان العلويون يقتنون عقب الصلوات يلعنون بنى أمية يشفون بذلك نفوسهم الشائرة ، من أجل دماء مطلولة ، وطوائل^(٤) طويلة ، وملك مستأثر به .

واقفني معاوية فعل عمر بن الخطاب في العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره ، وكذا كان زياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج . قال الجاحظ : ثم لم يكن بعد

(١) كان اللعن منذ القرن الأول من أيسر ما يقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً وانطوار ذلك البساط مما عليه جملة ، لم تشتف صدور شيعة على من النيل من الراشدين والأمويين والعباسيين حتى كاد لعنهم يعد من أركان المذهب ، وصار بعضهم يمتنون الشيخين بضمي قريش ويقذفون بابتدئهما الطاهرتين ، وأصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلعنون كل من حارب ملطاتهم ، وقد عزم المعتضد على سب معاوية على المنابر فحذره وزيره من اضطراب العامة وأمر المعتضد لعن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلعن ببغداد وسائر العراق ، ولعن ابن طولون المعتضد على المنابر في جميع أعماله بمصر ، وعمد إلى هذا اللعن السياسي بعض خلفاء بني العباس أما الإسلام فلم يجوز اللعن إلا على الكفار لأعلى التعيين . وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في لعن الظالمين والمنافقين إكباراً لعنهم في خراب العمران ، وما يشاهد في بعض الكتب من لعن بعض أهل القلة وغيرهم فاما هو من زيادات النساخ على ماحقق ذلك العارفون من العلماء (٢) الكامل للمبرد (٣) معجم الإسلام مادة أمية (٤) ظل دمه هدره والطوائل جمع طائفة وهي العداوة والثرة

هؤلاء أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك للنصور . ونقل عن زياد أن رجلاً كلفه في حاجة وجعل يتعرف اليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال له : أنت تعرف إلى وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إني لا أعرفك وأعرف أباك وأمك وأعرف جدك وجدتك وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان وقد أعارك إياه ، فهبت الرجل وأرعد^(١) حتى كاد يفشى عليه .

قلنا إن معاوية كان يتخير عماله من كفاة أهل بيته أو من غيرهم من رجال دولته وأنصار دعوته . وقد انتهى إلى علمه أن ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم عامله على السكوفة قد أساء السيرة في إمارته فعزله وأقصاه عن الحكم . وقيل إن سبب عزله أن عبد الله بن همام السلولى قال شعراً وكتبه في رقاع ألقاها في المسجد الجامع وهي :

ألا أبلغ معاوية بن صخر	فقد خرب السواد فلا سودا
أرى العمال أقساء علينا	بعاجل نفهم ظلموا العبادا
فهل لك أن تدارك ما لدينا	وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعزل تابعاً أبداً هواه	يخرب من بلادته البلادا
إذا ما قلت أقصر عن هواه	تمادى في ضلالته وزادا

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بني حرب ولأه الطائف ، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولأه مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة . فكان إذا ولى الطائف رجلاً هو قيل في أبي جاد ، فإذا ولأه مكة قيل هو في القرآن ، فإذا ولأه المدينة قيل هو قد حذق^(٢) . وأوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : لا تبيعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ،

(١) أرعد أخذته الرعدة (بفتح الراء وكسر ها) وهي الاضطراب يكون من الفزع وغيره

(٢) تاريخ الطبرى

واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تحب عليك المؤنة وعلينا منك ، وافتح بابك للناس . وقال لآخر : إذا أعطيت عهداً فب به ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فإذا خرج فلا يردن عليك ، ولا تظمن أحداً في غير حقه ولا تؤيسن أحداً من حق له . قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شيء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وارضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولائهم ، ليعتقدوا أنهم لا يكذبون وأنهم إذا قالوا فعلوا .

ومن بين الدولة الأموية أن كانت لا تستعمل من العمال إلا من ثبتت كفاءته ونجدته في تأييد سلطانها ، يحضونها النصيح ولا يغفلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر يستعير عنه أكفاً منه أو من كان على شاكلته أو ألين منه عريكة ، يريد عاملاً حقيقياً للعمل لا عاملاً لعامل يرزقه ، يتطلب عاملاً إذا عرضت له المعصلات أن يفتق له وجه الحيلة ما يتوجه له فيه وجه . أوعز زياد إلى والي خراسان أن يصطفى لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب إلى خراسان إلى زياد : بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وإني وجدت كتاب الله تعالى قل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقا^(١) على عبد ثم اتقى الله حمل له مخرجاً والسلام . وقسم الفيء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة من أمر يحفف بأرباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال ، ذلك لأنه رأى في ولايته ما لم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد . وهذا مما يشعر بما كان للعامل الأمين في عهد معاوية من الحرية فيما يرتئيه لإصلاح عمله . والإدارة في قطر قد لا تصلح لقطر آخر . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب

(١) الرق ضد الفتق والصدع وفي التبريل كاث رتقا ففتقنهما أي مصمتين مضمتين لا فرجة بينهما

قال زياد ما غلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة ، طلبت رجلاً فلحقاً اليه وتحرم^(١) به فكتب اليه : إن هذا فساد لعملي إذا طلبت رجلاً لجأ اليك وتحرم بك . فكتب اليه معاوية : إنه لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرافة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا . . وأعظم بمثل هذا الدهاء ، وقديماً قالوا : الدهاء أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . وقال بعضهم : دهاء العرب وذو الرأي والمكيدة معاوية وعمرو والمغيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء . وأربعة ممن ذكر دبروا ملك بني أمية والآخرون كانوا من جماعة علي .

علمنا أن معاوية ما كان يستخدم الحسام ، إذا أجزأه^(٢) الكلام ، رمى أهل مصر وعمرو بن العاص لأنهم اشتركوا في مقتل عثمان ، كما اشتركت الكوفة والبصرة وبعض أهل المدينة ، ولما هلك ولّى مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان^(٣) . وكان وإلى عمر على الطائف وصدقاتها ، وهو من بلاء الخطباء ، قبل لم يكن في بني أمية أخطب منه . فاشتد على أهل مصر وطامن من جماعهم ، وأدخل الرهبة على قلوبهم . ومن جملة ما خطبهم ، وفيه نموذج من خطته وخطة أخيه ، قوله : يا أهل مصر خفت على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأتم تأتونه ، كالبحار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإني والله لا أداوي أدواءكم بالسيف ، ولا أبلغ السيف ما كفاني السوط ، ولا أبلغ السوط ما كففتني الدرة ، ولا أبطئ عن الأولى إن لم تصلحوا عن الأخرى ، ناجزاً^(٤) بناجز ، ومن حذر كن شر ، فدعوا قال ويقول ، من قبل أن يقال فعل ويفعل ، فان هذا اليوم الذي ليس فيه عقاب ،

(١) يقال تحرمت لطمعك وبجاسك أي حرم عليك مني سببها ما كان لك أخذه وتحرم فلا تملن إذا عاشره وماله وتأكدت الحرمة بينهما (٢) أجزأ عنى أغنى (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) الناجز والنجيز الحاضر

ولا بعده عتاب . وخطب الناس بمصر عن مَوْجِدَةٍ^(١) فقال : يا حاملى الأم آنف^(٢) ركبت بين أعين ، إني إنما قلت^(٣) أظفارى عنكم ليلين متى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقياً عليكم ، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسنت أدواؤكم وإلا فإن السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تمها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم ، ولست أبجل عليكم بالعقوبة ، إذ جدتم بالمعصية ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى ، إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى .

واستخلف عتبة هذا عاملاً له على أهل مصر ، وكانت له شدة ، فامتنع عليه بعض أهلها وكتب إلى عتبة . فقدمها فدخل المسجد ورقى المنبر وقال : يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من إن قال فعل ، فإن أبيتم درأكم^(٤) بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء فى الآخر ما أدرك فى الأول : إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناداه المصريون من جانب المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » . تهديد نافع هدد به عتبة أهل مصر ليحملهم على الطاعة ، ويدفع عن البلاد غائلة الفتن بموعظته فى خطبته ، وأسلوب جميل فى الإدارة من أنفع الطرق التى تنجح فيها الخطابة السياسية .

وكما لمح عتبة شرارة الفتنة خطب القوم بما يطفئها من معين الاعتة . احتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته . فصعد عتبة المنبر والكتاب بيده وقال : يا أهل مصر ، قد طالت معاتبتنا إياكم

(١) الموجدة الغضب (٢) الآف جمع أنف ، وتجمع على أناف وأنوف (٣) ظم الطمر قطع ما كان منه وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء . فقد قلبته (٤) درأه دعه شديداً

بأطراف الرماح وظبات^(١) السيوف حتى صرنا شجى في لهواتكم^(٢) ما تسيقنا
حلوكم ، وأقذاء^(٣) في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، فحين اشتدت عرى
الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا . أرجفتم بالخليفة وأردتم
توهين السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث ، فارجحوا
أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد
القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر
سلككم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وان أسررتم شراً ، فانكم حاصدون
ما أنتم زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين اهـ .

وخطب عتبة في الموسم في سنة احدى وأربعين ، وعهد الناس حديث
بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : « أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله
فيه للمحسن الأجر ، وطى المسىء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا ، فانها تنقطع
دوننا ، ورب متمن حفته في أمنيته ، أقبلا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » وقد
عرفنا بهذه النموذجات من الخطب كيف أخذ بنو أمية يصفون البلاد من كدورات
الفتنة . وبعتبة وبأمثاله أدخلوا الناس في الطاعة ، وكانوا ركبوا رؤوسهم^(٤) في
الغوائل وأوغلوا ، وبعتبة وبأمثاله من العمال الذين كانوا يعملون للجماعة بعقولهم
وقلوبهم ، وهم على اقتناع من صحة دعواهم ، دفعوا الناس إلى الانقطاع الى أعمالهم
واضطروهم إلى أن يتركوا الخوض في سياسة الملك ، إلى من يحسن القيام عليها .
ومن نظر في سيرة أولئك العمال يأخذه العجب من عفتهم عن الأموال وتبلغهم
بالقليل وانفاقهم بلا حساب لتأليف الشارد واستمالة الخصم المعاند ، فقد ذكر

(١) الفلة حد السيف أو السن ونحوهما والجمع طبات وطى . (٢) واللهاة اللحمة المشرفة على
الحنق في أقصى سقف الفم وجميعها لهوات ولهيات ولى . والشجى ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .
(٣) القدى ما يقع في العين وفي الشراب من تبة وغيرها (٤) ركب رأسه مضى على وجهه بغير روية

المؤرخون ان عمرو بن العاص الذي ولي مصر مرتين وجعلها له معاوية في المرة الثانية طعمة بعد الاتفاق على مراقبتها إذا هو ساعده على قتال عليّ . ان هذه الطعمة لم تعد على عمرو بثروة تذكر . وما اشتد عمرو على أهل مصر اشتداد عتبه لأن هذا كان في سن الكهولة وعمرو في سن الشيخوخة . والشيوخ في الادارة أقرب إلى الحنكة ^(١) والروية من الشباب على الأغلب . أما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتبه الناطقة أو على طريقة عمرو الصامتة .

كانت العراق بعد حوادث عليّ تغلى عليان الرجل ^(٢) بالشوار، وتجع بأرباب الشعب، فرماهم معاوية بزياد بن أبي سفيان فخطب أهلها قائلاً : « حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً واحراقاً ، إياي ودلج ^(٣) الليل ، فاني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وإياي ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً وأحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن عرق قوماً أغرقتهم ، ومن أحرق قوماً أحرقتهم ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نقش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم ، وقد كانت بيني وبين أقوام أشياء قد جعلتها ذبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان محسناً فليزدد ، ومن كان مسيئاً فلينزع . اني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يبدي لي صفحته ^(٤) فاذا فعل ذلك لم أنظره ، فأعينوا على أنفسهم وأتلفوا ^(٥) أمركم » ومعنى هذا أن زياداً أعلن في العراق الادارة العرفية العسكرية ، وصرح بأنه يتناسى ما سبق للقوم من الخطيئات للدولة ولنفسه ، إذا أحسنوا السيرة ، وأنه ينوي افتتاح عهد جديد يغاث فيه الناس ويستريح

(١) حنك وأحنك وتحنك الدهر الرجل جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حنكاً والحنكة الاسم من حنك الدهر (٢) الرجل كبير القدر من الحجارة أو النحاس (٣) الدلج سير الليل كله أو في آخره . (٤) صفحة الرجل عرض صدره والصفحة الورقة والجنب ومن المجاز أبدى له صفحته كاشفه (٥) أنف واستأنف الشيء أخذه فيه وابتدأه .

السلطان . ومع هذه الشدة البادية في كلام^(١) زياد كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني إلا الرجلة^(٢) فيقولون : أجل . فيحملهم ويقول : أغشوني الآن وأسمرؤا عندي . يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفي ، والبعد جفاء ، والعامل مضطر إلى أن يعلم البواطن والظواهر ، ولا ميدان لالتقاط الفوائد إلا في المجالس الخاصة . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرية ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شامهم ، وحبي العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف اهـ .

كان زياد إذا ولي رجلاً قال له : خذ عهدك وسر إلى عمالك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنتك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك : إذا وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتك من موتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأحسننا على خيانتك أدبك فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غرْمك ، وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا في عمالك ، ورفعنا لك ذكرك ، وأكثرنا مالا وأوطأنا^(٣) عقبك . مثال من أعمال عمال معاوية وما يريدون أن يكون عليه من يتصرفون للسلطان ليستقيم أمر البلاد . وكان زياد يقول : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا بكت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمته له منه . قال زياد لحاجبه : كيف تأذن للناس؟ قال على البيوتات ، ثم على الأنساب ، ثم على الآداب ، قال فن تؤخر؟ قال : من لا يعبا الله بهم . قال : ومن هم . قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء . وقال

(١) الكامل للبرد (٢) الرجلة المشى (٣) يقال فلان موطأ العقب أى كثير الاتباع

لحاجبه : وَلَيْتَكَ حِجَابِي وَعِزَّتِكَ عَنْ أَرْبَع : هذا المنادى إلى الله في الصلاح والفلاح لا توقفه عنى ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه ، فسرّ ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد . قال العتيبي : كان في مجلس زياد مكتوب : « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته ، الأعطيات في أيامها ، لا احتجاب من طارق ولا صاحب ثغر . » وكان زياد يؤثر الأعمال على الأقوال لعلهم بأنها تنادى على نفسها . فقد بنى بالبصرة أحياء ودوراً ومساجد وحفر أنهاراً وترعاً وكل ما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره ^(١) .

وزياد في الواقع لم يزل بالمدارة من يوم كان أميراً على فارس ، وهي تضم ناراً ^(٢) حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب . وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة والعلم بما يأتي . ولما قدم فارس بعث إلى رؤسائها فوعده من نصره ومناه وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل ذلك بكرمان . وقدم زياد العراق وهي حجرة تشتعل ^(٣) فسل أحقادهم وداوى أدواءهم . وابنه عبد الله تولى العراق بعده ، وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا الفقراء ، ونكب ^(٤) المناكب ، وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ووضع الكراسي ، وعمل المقصورة ولبس الزیادی ، وربع الأرباع بالكوفة وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطى في يوم واحد المقاتلة والذرية

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (٢) تاريخ الطبری (٣) العقد المرید لابن عبد ربّه (٤) نكب على قومه ينكب نكابة وسكواً إذا كان منكأ لهم يعتمدون عليه والمنكب عريف القوم أو عوهم

من أهل البصرة والكوفة وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً والذرية مائة ألف وعشرين ألفاً . وضبط زياد وابنه عبد الله العراق بأهل العراق . هكذا كانت أعمال العمال تسير على أجل مثال .

كتب معاوية إلى سُلَيْم بن عتر قاضى مصر يأمره بالنظر فى الجراح والحكم فيها ، وكان الرجل إذا أصيب فجرح بذلك الجرح فقضته على عاقلة ^(١) الجراح ، ويرفعها إلى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتضى من أعطيات عشيرة الجراح ما وحب للمجروح وينجم ^(٢) ذلك فى ثلاث سنين . والقاضى سُلَيْم هذا أول من سجل فى مصر سجلاً بقضائه ، وذلك أنه اختصم إليه فى ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ثم سجله . وكان من سياسة معاوية أن يحمى عماله الصادقين ، وما كان يقيد من عماله ويدي ^(٣) من يبت المال .

وابتكر معاوية فى الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها ^(٤) ، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التى يصلى فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، وهو أول مسلم غزا فى البحر وأنشأ الأسطول فى صناعة صور وعكا وطرابلس، وغزا الروم، ولما فتح قبرس ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة، وأهم ما قام به تنظيم الجيش فضاعف عطاءه ووقت أوقاتاً لتناول أرزاق الجند، ووفق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم : زياد ثم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والصحاحك بن قيس وأبو الأعور السلمي ومسلم بن عقبة وبسر بن أبى أرطاة

(١) العاقلة العصاة والأقارب من قبل الأب أى سواهم الذين يعطون دية قتل الخطأ
(٢) نعم المال جعله نجوماً والحم الوقت المضروب . ونجمت المال وزعته كالكوكب وصرته أن تدفعه عبد طلوع كل نجم ثم أطلق النجم على وقته ثم على ما يقع فيه (٣) أقاد القاتل بالقتيل قتله به بقبده إقادة واندو فلان انداء أحد البدنة ولم يثار بقتيله وأصله أوتدى (٤) حطط الشام للزولف



وحبيب بن سلمة . وكان إذا لامه أهله على كثرة بذله المال للعلويين والهاشميين أجابهم ان الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء

وهو أول من وضع البريد ، أحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرّفهم ما يريد فوضعوا له البريد ، واتخذوا له بغالا بأ كف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم . واستكتب عبد الله ابن أوس الغساني سيد أهل الشام ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم . ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وبياله ، فاذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك ، وعلى هذا كانت الدولة تحصى السكان ، ولا يفوتها خبر من يفتقل في أرجاء البلدان . واستخدم معاوية النصارى في مصالح الدولة وكان عمر يمنع من استخدامهم إلا إذا أسلموا ، فعهد إلى سرجون بن منصور ، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام ، بإدارة أمواله . وكان منصور والد سرجون على المال في الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بأن أتى أن يمسك الرجال بالمال ^(١) قائلا ان الملك أى هرقل غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم ، لأنه يحتاج إلى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ، قالوا انه أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم المدينة إلى العرب .

كان معاوية يحب الانتفاع من كل قوة تستخدم في قيام الدولة وتعين على انتظام الجماعة . ولما رحل جبلة به الأيهم ^(٢) إلى الروم وارتد عن إسلامه دعاه معاوية بن أبي سفيان إلى الرجوع إلى الإسلام ووعده إقطاع الفوطة بأسره . يريد

(١) خطط الشام للؤلف (٢) الأغاني للاصفهاني

بذلك تلافى خطأ عمر بن الخطاب يوم أبى إلا إقامة الحد على جبلة فكان من ذلك فراره إلى الروم . و « كان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان آل نصر عمال الأكاسرة على عرب العراق . »

وباتخاذ دمشق دار الخلافة بعد أن كانت دار إمارة الشام وحدها ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثير سكان الفيحاء من العرب ، يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الأقطار ، ويختص الخليفة أهل الشام بعنايته ، ويستعمل الصالحين من أهل الذمة في أعماله الإدارية . ورأى النصارى أكثرية في الشام ، فنقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة ، وأنزل بعضهم أنطاكية ، وأصل الزط من السند يغلب السواد على سجناتهم ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور ونقل من أساورة^(١) البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية جماعة . هذا عدا القبائل العربية التي أسكنها الشام فزجهم بأهلها الأصليين حتى يكون آمناً في دار ملكه . وبعمله هذا أصبح الساحل الشامى غاصاً بالعجم والعرب ، وذلك تقادياً من أن يستأثر النصارى وحدهم بفتح البلاد من البحر ، وفي مزج العرب بالفرس بسكان البلاد الأصليين يصبح كل عنصر رقيباً على العنصر الآخر ومنافساً له . ولما صالح صاحب قبرص خير أهلها بين أن يسكنوا الشام أو يرتحلوا إلى بلاد الروم . ولئن غدت دمشق قبلة الاسلام ودار الملك فقد ظلت المدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافة من خلفوه ، وما جعل مقره في الشام إلا لأن أهلها أحبه لما بلوه ، وكفى بههد إمارته عليهم أن يعرفهم ويعرفوه ، ويطلع طباعهم بطابع الطاعة والترام حانب الجماعة . وخصلة أخرى أيضاً وهي أن دمشق متوسطة بين البلاد الاسلامية أكثر من الحجاز ، وفي الشام من

(١) الأساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالأحامرة بالكوفة قيل أصل الأساورة أساور والنزاع عوص عن الباء كالزاديق والزنادقة

الخيرات الطبيعية والأعمال الصناعية ما يمتاز منه الجيش ويرتق ، وما يترفع به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا إن دمشق أصبحت في عهد معاوية ثم في عهد الخلفاء مدرسة يتخرج فيها القواد والأمرء والجند .

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير في الرأي العام حسن معرفته باستخدام الشعراء^(١) وكان الشعراء كأرباب الصحافة في ذلك العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ، فأبعد أشعر عن الهجو المألوف بين القبائل وجعله أداة عمل صالحة . ولم يغفل معاوية في وقت من الأوقات عن تعهد الزراعة وعنى بها في الحجاز عناية خاصة ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، وأقام أسدأداً للارتفاع بالمياه ، وسرت أسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم تره من بعد . هذا مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات وموسم الحج ، لأنها موارد غير طبيعية في المعاش ، ومذاهب في الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة . وصالحت الروم معاوية على أن يؤدي اليهم مالاً وارتهن معاوية منهم رهناً فوضعهم ببيعليك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

كان معاوية في الابداع تأسيس دولة الأمويين كعمر بن الخطاب في إبداعه بإنشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن أحد الصلحاء سئل أيام معاوية كيف تركت الناس قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهي . كأنه يريد أن تكون إدارة الملك على عهد ابن أبي سفيان ، كما كانت على عهد عمر بن الخطاب ، وفاته أن لكل عصر طريقته ورجاله . والغالب أن البعيد لا يقدر الأمور بقدرها كالقريب ، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض في الناس بأمر

(١) مجلة الاسلام . مادة معاوية

من الخليفة أو بعناية عماله وحدهم ، وأن كل خير لا يأتي إلا من السلطان ، أما المحكومون فليس لهم كبير أثر في إفاضة العدل في العالم ولا تلحق بهم تبعه ، والنقد سهل والصعوبة في الابداع .

قال المسعودي — وهو مشهور بتشده في تشييعه — : وأخبار معاوية وسياساته وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بره واعطائه وشملمهم من إحسانه ، مما اجتذب به القلوب واسترعى به النفوس حتى آثروه على الأهل والقربات . وقد كان اثم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا اتقانه للسياسة ، ولا التأني للأمر ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورقه بهم ، ورفعهم على طبقاتهم .

ادارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك

مضت أيام معاوية الطويلة ؛ عشرون سنة أميراً وعشرون أخرى خليفة ، وأوصى ابنه يزيد عند موته بقوله : أنظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم . ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار ذون الدثار ، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم لا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم . وجه نصيحته إلى قلب المملكة الحجاز والعراق والشام ، لأنها إذا استقامت لا يخشى على الأطراف . وقد كان معاوية عني في آخر أمره بتخريج يزيد ابنه وولى عهده يستشير في المسائل الطارئة ويأخذ برأيه أحياناً ويبعث همته على العمل ، ليتولى الأمر عن كفاءة ، وقد علمه أنساب الناس والنجوم والعربية ، أقام أستاذاً له في ذلك

دغفل بن حنظلة الشيباني ، ومشى يزيد في إدارته على أثر أبيه ، فكان لا يرضن بالمال مهما عظم في سبيل الخلافة . وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : كم كان عطاؤك . فقال له : ألف ألف . قال : قد أضعفناها لك . قال : فذاك أبي وأمي ، وما قلتها لأحد قبلك . قال : قد أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف . فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية ، وما زال يزيد يزيد في إعطائه لمنزله ، ولأنه يريد أن يتألف بواسطته أهل المدينة ، ويرفع يد ابن الزبير عنها وعن دعوى الخلافة .

وما أثر عن يزيد أنه غير شيناً من أصول إدارة أبيه لاستغراق حرب الحسين ابن علي في العراق وعبد الله بن الزبير في الحجاز معظم أوقاته ، أما ابنه وخليفته معاوية الصغير أو الثاني فكانت خلافته أياماً وما أراد أن يدخل في شيء من مهامها .

كان مروان كعناية آية في عقله وسياسته وتدييره ، درس الإدارة زماناً طويلاً في الحجاز ، وعرف ما يفسد الناس ويصلحهم ، وما يهيجهم ويسكنهم ، ولكن أمره لم يطل كثيراً ، وتستبين محاسنه في تدييره الملك مما وقع لابنه عبد العزيز معه ؛ فان مروان لما ولى الخلافة جاء إلى مصر فأقام بها شهرين ثم جعل ولايتها إلى ابنه عمه العزيز ؛ جعل إليه صلاتها وخارجها فقال عبد العزيز ^(١) : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي ؟ . فقال مروان : يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واحعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره ^(٢) وينقاد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمورك في بيتك .

(١) تاريخ الولاة والقضاة للسكندى (٢) العين الحاسوس

هكذا دبر مروان ابنه ليخرجه في الادارة ويعلمه حكم الناس ، جعل له موسى ابن نصير وزيراً ، وهو ما هو بعلمه وعقله وحسن سياسته ، وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً إلى إفريقية والمغرب ، ففضى على البربر والرومان ، ثم فتح الأندلس . أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولابن عبدل في بشر بن مروان :

ولو شاء بشر كان من دون بابه طاممٌ —ودٌ أو صقالبة حمر
ولكن بشراً أسهل الباب لاتي يكون لبشر عندها الحمد والأجر
بعيدٌ مراد الأمين مارداً طرفه حذار الفواشي باب دار ولا ستر
استعمل عبد الملك بشراً وأمره بالشدة والغلظة على أهل المعصية^(١) وباللین
على أهل الطاعة وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم رَوْح بن زنباع
ورجاء بن حيوة الكندي ، وهما من أمثل رجال نبي أمية وأعلمهم وأسوسهم .
وكان من سياسة بشر أو من سياسة دولته عامة أنه إذا ضرب المعث^(٢) على أحد
من جنده ثم وجده قد أدخل بمركزه أقامه على كرسى ثم سمر يديه في الحائط ثم
انزع الكرسى من تحت رجله فلا يزال يتخبط حتى يموت . وبهذه الشدة على
المجندين ما كانت تحدث أحداً نفسه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش أمية أطوع
جيش عربي . ولا يستغرن أحد هذه الشدة فخرء الفار من الجندية في يومنا .
هذا القتل .

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له في سياسة
الروساء ليسلس له قياد المرووسين ، وكيف لقنه أبوه أقرب الطرق إلى استمالة القلوب ،
وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نأفة في إدارته عمرت مصر في أيامه

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢) المعث الجيش أو كل قوم دعوا والجمع بعث بضمين وبموت

عمراناً ليس مثله ، ومما بنى في حلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن^(١) عمارة وأحكمها ، وغرس نخيلها وكرمها ، وكان له ألف جفنة^(٢) كل يوم تنصب حول داره ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر .

ولى عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها إليه ، فلم يوجد له مال ناض^(٣) يوم موته إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبد الله بن عبد الملك بن مروان وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مداً من الذهب . وتقدم إليه أبوه أن يعفى آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد فاستبدل بالعمال عمالاً وبالأصحاب أصحاباً ، ذلك لأن عبد العزيز لم يرض أن ينزل عن ولاية العهد لابن أخيه في حياته ، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل .

وجرى عبد الملك بن مروان في إدارة الملك على طريقة والده وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البلاد ، فزادت الأمور استقراراً ، والأعمال تسلسلاً ، والعمال رعية ورهبة ، والرعايا أمناً ودعة . وكثيراً ما كان يعتمد إلى الشدة لا تأخذه رافة بخصوم دولته . قتل مصعب بن الزبير وكان أحب الناس إليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال في الاعتذار عن عمله : « ولكن الملك عقيم^(٤) » ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر في شئ ، من سيرته إلا باللين فان عثمان لان لهم حتى ركب ، ولو كان غلظ عليهم جابه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا » . وقال : إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أى باللين أغير على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالى أن يسير في كل زمان بما يصلحه .

(١) الولاية والقضاة للكندى (٢) الحقة القصعة الكبرى (٣) الناص الدرهم والدينار (٤) الملك عقيم أى لا يفع فيه سب لأنه يقتل في طلبه الاب والولد والأخ والمسمى به لقطع صلة الرحم بالترحم عليه

وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وأمة . وقال عبد الملك يوماً :
أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسرون فينا ولا في
أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلاً على كل . وسأله ابنه الوليد
يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة
بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ^(١) .

ولى عبد الملك العراقيين الحجاج بن يوسف الثقفي فقال : دلوني على رجل
أوليه ، ف قيل له أى الرجال تريد؟ قال : أريد دائم العيوس ، طويل الجلوس ، سمين
الأمانة ، أعجب الخيانة ، لا يحنق في الحق على مرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في
الشفاعة . ف قيل عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي فأرسل إليه فاستعمله فقال له :
لست أقبلها إلا أن تسكفني عمالك وولئك وحاشيتك . فقال الحجاج : يا غلام ناد
من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . قال الشعبي : فوالله ما رأيت قط
صاحب شرطة مثله كان لا يحس إلا في دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم
وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً
ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بمحديقة وأظهر سلاحاً قطع يده ، فر بما أقام
أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد ، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .
خطب الحجاج أهل العراق : « إني رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما
صلح به أولها : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذن
الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول :
أنبج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم » ولما اتصل بعبد الملك إسراف
الحجاج في ^(٢) القتل وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه : أما بعد فقد بلغني
سرفك في الدماء وتبذيرك الأموال ، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس ، وقد

(١) الصنائع جمع صبيعة أى الاحسان والصنائع المصطعون (٢) الاشراف لابن أبى الدنيا

حكمت عليك في القتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية ، وان ترد الأموال الى أصحابها فانما المال مال الله ونحن خزانه ، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا . كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شعوماً » .

وكان الحجاج يأخذ بأيدي العلماء ممن لا يتدخلون في سياسته ولا يشاركونه في سلطانه ، ويضع في كل يوم ^(١) ألف خوان في رمضان وفي سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر ، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائده ويتفقدوها ، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليحجيء بسكرها فابطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر بضربه مائتي سوط ، فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ، فكان عند الناس أحمد .

واشتهر عهد الحجاج ^(٢) باصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة باصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموجداً ، ومن إيجاده وضع الحركات والاعجام في المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن . واتخذ ^(٣) الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين فكان يعرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخالصة الزيوف والستوفة والهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق واستعملها من فصول ما كان يؤخذ من فصول الأجرة للصناع والطباعين وحتم أبدى الطباعين

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢) معلة الاسلام — مادة الحجاج (٣) فتوح البلدان للبلدري

حرّض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الأمور لما وسد إليه إمارة مصر قائلاً له : أنظر أى بنى إلى أهل عملاك فإن كان لهم عندك حق عدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأيي فيه إن شاء الله ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة^(١) الغضب ، واحس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وأنت ساكن الغضب مطلقاً الجرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فيكونوا أصحابك وجلساءك ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك « وهذا من أجل أساليب الإدارة وسياسة الناس : لا تأخير في الفصل بينهم ، ولا كذب في الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعالمين ، وجعلهم وحدهم بطانة وسماراً وجلساء ، ولا إسراع في إزال العقوبات حتى يذهب الغضب .

وبلع عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له : والله إن كنت قلت هدية لا تنوى مكافأة المهدي لها إنك لثيم ذنى ، وإن كنت قبلتها تستكفي رحلاً لم تكن تستكفيه لولاها إنك حائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وأن لا تحون له أمانة ولا تتلم له ديناً فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر محاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، ثم صرفه عن عمله . ذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب ، والرشوة من من طريق الهدايا تذهب بها حقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معاً . وكان

عبد الملك بن رفاعة أمير مصر (٩٦) يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق .

وأدخل عبد الملك أموراً جديدة في الإدارة وهو أول من أفرد للظلمات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان إذا قعد للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف وينشد قول سعيد بن عريض بن عدياء من يهود الحجاز :

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت الساكت للقائل
واضطرع الناس بالباسبهم نقضى بحكم عادل فاضل
لا نجعل الباطل حقاً ولا ناط^(١) دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أعلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

وزاد عبد الملك الجزية ، وأقل الجزية ديناراً وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد ، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة — وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدين قحاً ؛ وقسطين زيتاً وقسطين خللاً ، وضعها عليهم عياض بن غنم في الفتح — فأحصى عبد الملك الجاجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه^(٢) وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير ، فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها^(٣) ، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضر به عليهم الامام من الحوائج كإصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

وفي أيامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك

(١) لظ الأمر لزمه ولط عليه الخبر ستره (٢) الأدم مائة سم به واتدم نكل الخبز مع الأدام وإدام الطعام هو ما يتعمل مع الخبز يطيه (٣) الخراج لأن يوف

الاسلامية كافة ، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم ، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشني من أهل الأردن أول مسلم ولي الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والكوفة^(١) ديوانان لا إعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية ، وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري ، قدمه لذلك الحجاج فكان كتاب العراقيين كلهم غلماناً وتلاميذه^(٢) ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الغزاري من أهل حمص ، وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الإدارة ، فان أول من كتب بالعربية في ديوان اصبهان سعد بن إلياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبي مسلم صاحب الدعوة . وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل اصبهان ، يقال إنه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلاً لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

وعبد الملك أول من كتب على الدينار (قل هو الله أحد) وذكر النبي في الطوامير^(٣) ، وكانت الدينار رومية تدخل من بلاد الروم ، والدرهم كسروية وحميرية^(٤) قليلة ، فهو أول من ضرب الدرهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة ابن ذؤيب والبريد اليه ، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها^(٥) . ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ، ومن أعماله أن يحجب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الأمويون لا يأذن خلفائهم بالدخول عليهم إلا

(١) أدب الكتاب للصولي (٢) خطط المقرئ (٣) الطومار الصحيفة والجمع طوامير (٤) الأحكام

السلطانية للباردي (٥) طبقات ابن سعد

بالترتيب الذي عينوه . والولاة ينزلون في المعسكر تحيط بهم الجند لتسهيل المحافظة عليهم فلا يقاتلم مغتال . وقد يتنقلون في عمالاتهم ، فزياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وفي البصرة مثلها^(١) ، وهو أول من سير بين يديه بالحرا ب والعمد واتخذ الحراس حسمائة لا يفارقون مكانه . وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً في المسجد الجامع أولاً ، ثم يقصدون دار الأمير فيقرأ أمامه عهد القاضي . والقضاة يقضون في الجوامع ، وكان الجامع في الاسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ماله علاقة بالسلطان والسكان .

أما الولاة فيدبرون ولاياتهم في المعسكرات ، والمعسكرات بمسدة عن دور الحكومة القديمة . و« ليس^(٢) من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » وإذا رحل الجيش واضطر إلى النزول في القرى لشدة البرد في الشتاء يؤيه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يطعمون .

كان جيش عبد الملك ومن بعده من العنصر العربي ، ولما توسع الأمويون في فتوحهم شمالي إفريقية وفتحوا الأندلس جندوا أناساً من البربر ومزجوهم بجند العرب . بعث عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق ، وكان فيهم من العرب كنفدة وغسان وتميم وهمدان وربيعة وطى ونخلم وجذام وقيس وجماعة بنى أمية وقريش ورؤساء أهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر . ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين ألفاً من أهل الناس والبجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين ألفاً ، وولى على رؤساء كل طائفة واحداً منهم . ويقول البلاذري^(٣) إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساء وحمل ناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الحد في القتال للعيرة على الحرم . هكذا كان

(١) تاريخ أبي العلاء (٢) المسالك والممالك لابن حوقل (٣) توح البلدان للبلاذري

ترتيب جيوشهم في هذا الدور . وكانت أمور الحرب بيد الولاة في الولايات تقوم^(١) بها القبائل المهاجرة إليها ، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ، وبفضل هذه القوى المخلصة للأمويين ظفروا في الحرب الأهلية سنة ٦٤

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزيد والحجاج في أخذ نفسه بالتطلع إلى استعلام بواطن أمور الرعايا ، وكذلك كان في التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبدأً أن يكيدوا للمسلمين . ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين في سنة سبعين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إلى ملكهم في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين ، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتال الأمة على الملك^(٢) لما دعا عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق إلى نفسه بالخلافة ، واستولى على دمشق لما سار عبد الملك بجيوشه إلى العراق ، ليملكها من ابن الزبير . فعمل عبد الملك في اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شغل بقتال على ، فصالح الروم على مال يؤديه إليهم ، وليس من الحزم في دولة أن تحارب حريين داخلية وخارجية في وقت واحد . وفعل عبد الملك مثل ذلك في مداراة الروم فجدد الهدنة مع ملكهم على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً ويقاسم ملكهم على خراج قبرص وإرمينية على شرط أن يخرج اللبنازيون من جبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم ، وآلى اللبنازيون بعد ذلك أن لا يتعرضوا للعرب ، فلقب اللبنازيون بالمردة لأنهم عصوا أمر ملك الروم . وما كان عبد الملك إلا محافظاً على اعتداله لا يدهش لما يحل به من المعطيات^(٣) يحل مسائل الدولة بروية وتعمل وصبر . ويعدّ عبد الملك في العلماء كما يعد من أكبر الساسة . قال الحافظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قریش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف

(١) معلة الاسلام — مادة أمية (٢) دول الاسلام للذهبي (٣) المعطيات الأمور الشديدة الشيعة

ورعاً وزهداً . وهو أول من لقب من الخلفاء بلقب الموفق لأمر الله ثم لقب الوليد المنتقم^(١) لأمر الله . ولم يشتهر بهذين اللقبين كثيراً^(٢) . وأوصى عبد الملك أولاده أن يهطف الكبير منهم على الصغير ، وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحذّرهم البغى والتحاسد ، وأوصاهم بأخيهم مسلماً وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا الحجاج فإنه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر . أوصى به ولطالما تبرم من أعماله فى حياته . والحجاج وزيد وعتبة بن أبى سفيان و خالد القسرى الذى تولى العراق زمناً طويلاً ، وقتيبة بن مسلم أمير خراسان وفاتح خوارزم و سمرقند و بخارى الذى دخل إلى ملك الصين وضرب عليه الجزية وأمثالهم ، كانوا فى بنى أمية « قطب الملك الذى عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير و ينابيع البلاغة وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوها مغالقتها حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان^(٣) » .

إدارة الوليد و سلجانه

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه وراعى إخوته وحث أولاده على اصطناع المعروف ، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واعتقاد^(٤) الضياع فقلده رعاياه فى ذلك ، فكان الناس فى أيامه يخوضون فى رصف الأبنية و يحرقون على التشييد والتأسيس و يولعون بالضياع والعمارات^(٥) لوفرة الثروة فى أيدي الناس . وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن بيوت الأموال

(١) محاضرات الراغب الأصفهاني (٢) اصطح بعضهم ألقاباً للخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى دولة بنى العباس فرد الباقون هذه الألقاب المفتعلة (٣) المقد الفريد لأن عبد ربه (٤) اعتقد الضياع اقتناها واعتقد مالا جمعه (٥) لطائف المعارف للتمالي

قد ضاقت من مال الخمس فكذب اليهم أن يبنوا المساجد . وأجرى الوليد على القراء وقوائم المساجد الأرزاق ، وكذلك على العميان وأصحاب العاهات والمجذمين ، وأخدم كل واحد منهم خادماً ، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق في الصالحين ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة ، وذلك للشاميين خاصة ، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف . وفي منات الألوف من الدنانير التي أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع ، وما كان في خزائنه من الأموال التي تكفي الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التي احتجتها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارئ .

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظام في الإدارة وانتهى^(١) تعريب المملكة والإدارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ونُحى آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال وبلغت الفتوحات أقصى حدودها . وظهرت أبهة الملك والسلطان ، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر ، تخليداً للذكر وإشادة بالفخر ، والوليد هو الذي جوّد القراطيس وجلل^(٢) الخطوط ونظم للمكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف . ثم جرى الأمر بعدها على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطئاب . وكان الوليد موفقاً في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد . ومن خلق الوليد أنه كان سمحاً يسره أن يرى لعماله شيئاً من الرفاهية . كتب إليه الحجاج إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصحابها من حبلها فرحمه الله ، وإن تكن من

(١) معاملة الاسلام . الوليد (٢) جلال عظم

خيانة فلا رحمه الله . فكتب اليه الوليد إن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللتها له ، وأمره أن يترحم عليه .

وتوسع الأمويون في هذه الحقبة في إفاضة الأموال على عمالهم ، وكان القاضي بمصر مثلاً يرزق ألف دينار في السنة . كان ابن حجرية الأكبر في مصر (٦٩—٨٣) على القضاء والقصاص^(١) وبيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتي دينار ، وفي القصاص مائتي دينار ، ورزقه في بيت المال مائتي دينار وعطاؤه مائتي دينار وجائزته مائتي دينار . على أن العادة الجارية عندهم أن لا يعطى العامل سوى رزق واحد . ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلاً . وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان في بعض ما يجوز لهم المقام به ويوضع به الغزو عنهم . أما الحجاج فكان يشتد في تجنيد الناس لأنه يقط حذر دائماً ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب إلا أخرجه « وضرب^(٢) البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجيء الى ابنها وقد جرّدت فتصممه البها وتقول له : بأبي ، جزعا عليه ، وسمى ذلك الجيش جيش بأبي » وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم فينبذ السقيم ويجند السليم . وخطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان المهلب إلى الحرورية ومما قال : وإياي وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم أنتم ، والله لتستقيمين على طريق الحق أو لادعن لكل رجل شغلاً في جسده ، ومن وحدته بعد ثلاثة من بعث المهلب سمكت دمه . وانتهمت ماله وهدمت منزله . فشمع الناس بالخروج الى المهلب . ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود حيوش عند الخليفة وعمله في الأقطار تشبه الجيش الدائم تحت السلاح يتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية .

(١) صبح الأعشى للقلقشندي (٢) الأغاني للاصفهاني

وكان سياسة الدولة في هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب إليه الوليد يأمره أن يكتب إليه بسيرته فكتب إليه : إني أيقظت رأيي وأنت هوى ، وأدريت السيد المطاع في قومه . ووليت الحرب الحازم في أمره ، وفقدت الخراج الموفراً لمائته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً أعطيته خطأ من لطيف غنايتي ونظري ، وصرفت السيف إلى النطف^(١) السيء ، والثواب إلى الحسن الهشبي ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك الحسن بحظه من الثواب اه .

ولما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك أقرّ عمال من كانوا قله على أعمالهم ، وجلس في صحن المسجد وقد بسطت لديه السط والتمازق^(٢) عليها ، وصفت الكراسي ، وأذن للناس بالجلوس ، وإلى جابه الأموال والكساوى وآية الذهب والفضة ، فبدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضيهم ، فما يطلب أحد شيئاً إلا نوله مرامه ، ورد المظالم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان في سجنه في العراق وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكسهم .

إدارة عمر بن عبد العزيز

عمل الخلفاء السبعة الأول من الأمويين في إدارة الملك الاسلامي بما أوحاه إليه عقلهم وعملهم ، فكان الصحابة منهم والتابعون على مثال حالفوا فيه مرغمين بعض طريقة الراشدين ، لأن علمهم بالناس راد بما فتح الله عليهم من البلاد ، ولأنه نشأت أحداث جديدة . ودخلت في الاسلام عناصر أخرى . وكان عهد الأمويين صورة من دولة عادلة تأساهل في الأخذ بما لا يضر من الأوضاع ، وتقتس ما تصطره إليه طبيعة البلاد المفتوحة . وأكثر ما اهتموا له توفير الجباية

(١) السيف السيء (٢) التفرقة ، تدمير البؤسة وإسحق عمري

مع النظر إلى عمران البلاد والدفاع عن الحوزة ، والحساب للمستقبل بادخار فضل الأموال ، والظهور بمظهر دنيوى لا يعبت بأصل من أصول الدين .

كان أكثر خلفاء الأمويين يقولون العامل إذا حدث في جهته خرق لا يستطيع رتقه ، أو فتنة تهرق فيها الدماء ، وتكلف الدولة مالا ، وجعلوا همهم في مقاتلة الخوارج والشيعية في الداخل ، وغزو الروم والتوسع في الفتح من الشرق والغرب في الخارج ، وكثيراً ما كانت بعض الأنحاء تنور على الدولة ، إما بسبب تفاحش الخراج ، أو لأسباب أخرى كما كان من قبط مصر فخرجوا غير مرة على الأمويين وعلى من خلفهم ، وكانوا يرجعون مخذولين ، وربما كان من بعض عمالهم من اشتط في تقاضى الخراج الجزية والصدقات ، والظلم ما خلا عصر منه ، وخصوصاً في دولة ليست مشاكها متشاكها ، ولا أجيال الناس في أصقاعها متوحدة متماثلة ، وغاية ما يقال في الإدارة المتبعة أبداً توسيع سلطة العامل ، حتى يسرع في فض مصالح الناس ، ذلك لأن العرب ألفوا التقاضى على عجل ، وما عرفوا التطويل في الخصومات والمراجعات . وهذا ما كان ظاهراً كل الظهور في عهد الخوالف من بنى أمية ، ولاسيما في خلافة عمر بن عبد العزيز واسطة عقد الأمويين ، والمثل الأعلى للعدل الاسلامى .

كان عمر قبل أن يتقلد الخلافة عهد اليه الوليد بن عبد الملك بإمارة الحجاز « مكة والمدينة والطائف » فأبطل عن الخروج فقال الوليد لحاجبه : وما بال عمر لا يخرج الى عمله . قال : زعم أن له اليك ثلاث حوائج قال : فمجهله على فجاء به الوليد . فقال له عمر : إنك استعملت من كان قبلى فأنا أحب أن لا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع البنا درهماً واحداً^(١) . فلعمرو إذا طريقتة في الإدارة اشترط قبل أن يتولى الإمارة أن تترك له

(١) -يرة عمر بن عبد العزيز

حرية العمل . وكان يشعر قبل الخلافة بأن في إدارة الدولة شيئاً من الظلم . فقال يوماً لأسامة بن زيد — وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحته على توفير الخراج — : ويحك يا أسامة إنك تأتني قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم .

ولما بويغ عمر شرع لأول أمره بصرف عمال من كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته^(١) ، وأخذ يرد المظالم مظلة مظلة لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته إلا رده . وكتب إلى جميع عماله إن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنن سيئة سنتها عليهم علماء السوء ، فلما قصدوا الحق والرفق والإحسان . وكان أول خطبة خطبها : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقر بنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهد ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يقتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

وبدأ بنفسه فنزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعي . ورد على رجل قدم عليه من حلوان ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر أقطعه عبد الملك بن مروان أرض حلوان فورثها عمر وإخوته . فقال عمر : إن لي فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض . وقام معه إلى القاضي ففعد بين يديه ، فتكلم عمر بحجته وتكلم المدعى فقضى القاضي له ، فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم . قال القاضي : قد أكتم من غلتها بقدر ذلك . فتلجأت نفس عمر بحكم القاضي وقال : وهل القضاء إلا هذا ، تالله لو قضيت لي ما وليت لي عملاً ، وخرج إلى الرجل من^(٢) حقه . وأراد أهله على أن يتخلوا عن أملاكهم فقطع بالمقراض كتب الإقطاعات بالضياع والنواحي .

(١) المحاسن والمساوي للبيهقي (٢) مروج الذهب للسعدي

قالوا ولما أقبل عمر على رد المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ضجوا من ذلك على رؤوس الملأ في المسجد . وكانت انتهت لهم هذه الإقطاعات من الخلفاء السالفين . ذكروا أنه كانت غلة عمر لما بويع بالخلافة بين أربعين وخمسين ألف دينار ، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتي دينار ، ولو بقي لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما أخذوا من عقار ومزارع . وخلف من الناض بضعة دنانير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً ولم يرزاه^(١) حتى مات . وأداه اجتهاده إلى أن في صيغة امتلاك آل بيته الضياع والرباع نظراً ، وأن ماورثه وورثوه بالطرق المشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه . واعتقاد الضياع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل .

وكان الرسول أقطع بلال بن الحرث المزني أرضاً فيها جبل ومعدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها فظهر فيها معدن أو قال معدنان فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن وجاءوا بكتاب النبي لهم في جريدة فقبلها عمر ومسح بها عينه وقال لقيمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة ورد عليهم الفضل

وأبطل عمر بن عبد العزيز هدايا النيروز والمهرجان^(٢) وكانت تحمل إلى معاوية ومن بعده وقدرها عشرة آلاف ألف ، وهي من العادات الفارسية ، وأقرها معاوية وأنكرها علي . وقضى عمر بأن يكتفى بالخراج وزن سبعة « ليس

(١) رزاه ماله كجمله وعله يرزوه رزاً أصاب فيه شيئاً كارتزاه (٢) البيروز أو النيروز اسم أول يوم من السنة عند الفرس عند نزول الشمس أول الخيل ، مغرب نورووز أى اليوم الجديد . والمهرجان أول نزول الشمس في برج الميزان

لها آيين^(١) ولا أجور الضرايين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج^(٢) ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح، ورفع الخراج عمن أسلم من أهل الأرض » وأبطل جوائز الرسل وأجور الجهاذة وهم القساطرة وأرزاق العمال

(١) الآيين العادة والقانون ، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة . ويقول البيروني في الآثار الباقية : كان من آيين الأكاسرة أن يبدأ الملك يوم النيروز فيعلم الناس بالجلوس لهم والاحسان إليهم ، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظما موابذته ، وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرايته وخاصته ، وفي اليوم الخامس لولده وصنائه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والاكرام ويستوفي ما استوجبه من المبرة والانعام ، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنورز نفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر باحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المدين فيتأملها ويفرق منها ما يشاء ويودع الخزائن ما شاء .

وفي كتاب أخلاق الملوك للجاحظ أن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعلة في ذلك أنهما فضلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إذن بدخول فصل الحر ، إلا أن في النيروز أحوالا ليست في المهرجان ، ففيها استقبال السنة وافتتاح الخراج ، وتولية العمال والاستبدال وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت الثيران وصب الماء وتقريب القربان وإشادة البقيان وما أشبه ذلك ، فهذه فضيلة النيروز على المهرجان ، ومن حق الملك أن يهدي إليه الخاصة والحامة (العامة والخاصة من الأهل) والسنة في ذلك عندهم أن يهدي الرجل ما يحب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية ، فإن كان يحب المسك أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدي فرساً أو ربحاً أو سيفاً ، وإن كان رامياً فالسنة أن يهدي شهاباً ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدي ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك وكانت عليه موانيد (متأخرات أو بقايا) للسنة الماضية ، جمعها وجعلها في بدر حرير صيني وشرائح فضة وخيوط لإبريسم وخواتيم عنبر ثم وجهها . وكذلك كان يفعل من العمال من أراد أن يتزين بفضل نفقائه أو بفضل عماله أو أداء أمانته . وكان يهدي الشاعر الشعر والخطيب الخطبة والتديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثره ويفضله ، ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكل حالاتها وأفضل زينتها واحسن هيأتها ، فإذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك أن يقدمها على نساته ويخصها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة . ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوم قيمة عدل . وكان من تقدمت له هدية في النيروز والمهرجان صغرت أم كبرت كثرت أم قلت ثم لم يخرج له من الملك صلة عدد نائبة تنوبه أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه الخ . والغالب أن هدايا النيروز والمهرجان عادت تحمل إلى الخلفاء ولا سيما في عهد بني العباس فقد ذكر صاحب نشوار المحاضرة أنه حملت الهدايا إلى المتوكل في مثل هذه المواسم من كل شيء عظيم طريف مليح .

(٢) الفيوج جمع فيج وهو الساعي أي رسول السلطان الذي يسمى بين يديه

وأنزاهم ، وأبطل السخرة والعطاء وورث العيالات على ما جرت به السنة وأقر القطن^(١) التي أقطعها أهل بيته ، ولم ينقص العطاء في الشرف ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى الرجوع عنها . وورد كتابه على عامله في مصر بالزيادة في أعطيات الناس عامة ، وكسرت دنان الخبز وعطلت حاناتها ، وقسم للفلاحين بخمسة وعشرين ألف دينار ، ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها .

ووضع المكس^(٢) عن كل أرض واكتفى بال عشر ، والعشر ما يجب في الزروع التي سقيت بماء السماء وما يؤخذ من أموال أهل الحرب إلى بلد الاسلام المتأخهم لهم ، وإذا استقر الصلح معهم على أخذ العشر أو الخمس أو أكثر منه أو أقل منه أثبت ذلك الشرط في الديوان . ووضع الجزية عن كل مسلم ، وأباح الجزائر والأحساء كلها إلا النقيع^(٣) وقال في الجزائر هو شيء أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد ، وفرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين ، وسوى بين الناس في طعام الجار ، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف أردب لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن يستبرئ الدواوين^(٤) وينظر إلى كل جور جاره من قبله من حق مسلم أو معاهد فيرده عليه فإن كان أهل تلك

(١) أقطمه قطعة من الأرض والقطائع ، طائفة من أرض الخراج (٢) المنعكس الظلم وهو ما يأخذه العشار وهو مكس وما كس . والاحماء جمع حمى وهو موضع فيه كلاء يحمى من الناس أن ترعى . قال الشافعي في تفسير الحديث لا حمى إلا لله ولرسوله: إن الشرف من العرب في الجاهلية كان إذا نزل لدا في عشيرته استعوى كلاً حمى لخاصته مدى عواء الكلاب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المواقع حوله ، فنهى الرسول أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون إلا ما يحمى لحيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله وإبل الزكاة كما حمى عمر النقيع لنعم الصدقة والحيل المعدة في سبيل الله — نقله في التاج . والجزيرة هي الأرض التي لا يعلوها السيل ويحرق بها وفي الأصل كل أرض ينجز عنها المد (٣) والنقيع البئر الكثيرة الماء والجمع أنقعة والنقيع موضع على مقربة من المدينة حماء عمر لنعم التي وخيل المجاهدين لا يرعاه غيرها والأرجح أنه المقصود هنا (٤) استبرأ طلب الإبراء من الدين والذنب واستبرأ الشيء طلب آخره ليقطع الشبهة عنه

المطلعة قد ماتوا يدفعه الى ورثتهم . وقضى على عماله بإبطال المائدة والنوبة^(١) ، ومن أدى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فאלله حسبه . ورد الخس على أهله وعلى أهل الحاجة ، وقضى أن لا يؤخذ من المعادن الخس بل تؤخذ الصدقة ، وضرب أحدهم سبعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط .

وجرت عادة الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار أن يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه ، أى فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . وقضى عمر على عماله أن ينظروا الأرض ولا يحملوا خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وإن أطلق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما أطلق ويصلح ليعمر ، ولا يؤخذ من عامر لا يعتمل شيئاً ، وما أجذب من العامر يؤخذ خراجة في رفق . وكانوا بفارس يخرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يبتاعون به فيأخذونه ورقاً على قيمهم التى قوموا بها ، فرد عمر إلى من شكوا الثمن الذى أخذ منهم وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض غلتهم .

كتب إلى عامله إلى البصرة : أما بعد فإني كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها ومن سقط اليها من أهل البادية ومن أضافته اليها الحاجة والمسكنة وانهطاع السبيل فكتب إلى أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل اليك ثمنه ، فأررد إلى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التى أمرته بها ويصرفه فيها ان شاء الله والسلام .

(١) البوة النازلة جمع نوب ونوائب الرعية ما يتحتم عليهم من إصلاح القناطر والطرق وسد البشوق، ولعل المائدة ما كان يألفه العمال من إطعام الناس على مواعيدهم ، وهذا مال كبير يمكن اقتصاده حتى لا يسرف في بيت المال .

وأمر عماله بالرفق بأهل الذمة وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة فإن كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن بد من الاتفاق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إلى عامله على الكوفة أن قو^١ أهل الذمة فإننا لا نريد لهم لسنة ولا لسنتين ، وأعطى بطريقاً^(١) ألف دينار يستألفه^(٢) على الاسلام .

خاصم حسان بن مالك^(٣) عجم أهل دمشق إلى عمر في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها ، فقال عمر: ان كانت من الخمس العشرة الكنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها . وخاصم عجم أهل دمشق إلى عمر في كنيسة كان فلان أقطعها لبنى نصر بدمشق فأخرجها عن المسلمين وردّها إلى النصارى . وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد فهم أن يعيدها اليهم لولا أن للمسلمين أقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الفوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فسرّه وأمضاه .

وعمر أول من ندب نفسه للنظر في المظالم في الدولة الأموية فردّها ، وذلك لانتشار الأمر حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب فاحتاجوا في ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي تمتاز به قوة السلطة بنصفه القضاء . وما شرهت قط نفس عمر إلى أخذ أموال الناس بل ما كان يحب أن يأخذ منهم أكثر من الفضل ويسامح بكثير من هذا الفضل . كتب إليه عامله على العراق ان أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيماً ليس يقدر على استخراجهم من

(١) ان البطريق غير البطريرك فالأول لقب دى منصب سياسى والآخر لقب دى منصب دينى ، والأول Patrique و Patrice بالفرنسية والثانى Patriarche وقد عربته العرب أيضاً بقولهم بطريق وفي بعض الأحيان يختصرونه ويقولون بطرك — قاله أحمد زكى (٢) استألف طلب إلناً صديقاً مؤانسا (٣) فتوح البلدان للبلاذرى

أيديهم إلا أن يمسهم شيء من العذاب . فكتب إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كما ترى لك جنة^(١) من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر فيما قامت عليه البينة فخذ به بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشيء فخذ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخلّ سبيله ، فوالله لأن يلقوا الله بنجياتهم أحب إليّ من ألقى الله بدمائهم » وكتب إليه عامله على مصر حيان بن شريح : إن أهل الذمة قد أسرعوا في الاسلام وكسروا الجزية حتى استلقت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار لأتم بها عطاء أهل الديوان ، وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الاسلام . فأجابه عمر : « قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم ، فبج الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » وكتب إليه عامله على العراق عدّى بن أرطاة : إن الناس قد كثروا في الاسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . » وقال في إحدى خطبه : وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم . ثم قال : مالي وللدنيا أم مالي ولها .

ولم يشهد مثل تحري عمر في اختيار العمال وتعليمهم إحسان العمل ، وكان يرى كل مظلمة تقع في أقصى البلاد إذا لم يردّها ويكشف ظلامتها صاحبها ، كأنه هو فاعلمها أو على الأقل المسؤول عنها . وإذا شكى إليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يُخلّيه من ضرب يوجهه به . وكان لا يفتأ يبحث عن سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزلهم لا يستعين بهم بعدها أبداً . كتب إلى أحد عماله : « أما بعد فإذا دعيتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ، فاذا كر قدرة الله عليك وفناء ما تؤتي

اليهم وبقاء ما يأتون إليك» وكتب إلى عامله على العراق: «إن العرفاء من عشائهم
بمكان، فانظر عرفاء الجند فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبتته، ومن لم ترضه
فاستبدل به من هو خير منه، وأبلغ في الأمانة والورع» وما كان يضمن على عماله
بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له: ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتي دينار
في الشهر وأكثر من ذلك قال: أراه لهم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه،
وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بما يشهم. وقال: ما طاو عنى الناس على ما أردت
من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً.

وأخذ عمر نفسه بالسير في إصلاحه بالتدريج، ناظراً قبل كل اعتبار إلى الدين
لا يحيد عن صراطه قيد أنملة، ولو كان في ذلك بعض الضرر على بيت المال أو
إدخال بعض الوهن على ما اصطالحوا عليه من قبله، إرادة لقاء الهيبة في النفوس.
قال لابنه: ما بما أنا فيه أمر هو أهم إليّ من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد
وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره عليّ، ولكني
أنصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له، فإن يرد الله إتمام
هذا الأمر أمه، وإن تكن الأخرى فحسب عبد الله أن يعلم الله أنه يحب أن
ينصف جميع رعيته. وكتب إلى عامله على خراج خراسان: «إن للسلطان أركاناً
لا يثبت إلا بها، فالوالى ركن، والقاضى ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن
الرابع أنا، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إليّ ولا أعظم عندي من ثغر خراسان،
فلاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم، فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسيبيل ذلك،
وإلا فاكتب إليّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم. ولما وجد خراج
تلك البلاد يفضل عن أعطيات جندها وأهلها قسم عمر الفضل في أهل الحاجة.
وكتب إلى أمصار^(١) الشام أن يرفعوا إليه كل أعمى في الديوان أو مقعد أو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى

من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فأمر لكل أعمى بقائد ، ولكل اثنين من الزمنى بخادم . وأمر أن يرفعوا إليه كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية ، وفرض للعوانس الفقيرات ، وكان لا يفرض للمولود حتى يفظم ، فنادى منسديه لا تعجلوا أولادكم عن الطعام ، فانا نفرض لكل مولود في الاسلام

واتخذ دار الطعام المساكين والفقراء وابن السبيل ، وأوصى أن لا يُصيب أحد من هذه الدار شيئاً من طعامها لأنه خاص بمن طبخ لهم . وقسم في ولد على ابن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، وكان الناس في عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطايتهم ، فمن كان غائباً قريب الغيبة يعطى أهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه إلى أن يقدم أو يأتي نعيّة أو يوكل عنه الوالى بوكالة بينة على حياته ليدفعه إلى وكيله . ونظر في السجون وأمر أن يستوثق من أهل الدعارات (١) ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا أهل له ولا مال ، ولا يجمع في السجون بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالحبوس إلى من يوقن بأمانتهم ومن لا يرتشى « فإن من ارتشى صنع ما أمر به » وأنشأ الخانات في بلاده يقرى من مر بها من المسلمين يوماً وليلة ويتعهد دوابهم ، ويقرون من كانت به علة يومين وليلتين ، فان كان منقطعاً به يقوّى بما يصل به إلى بلاده ، وأمر أن لا يخرجن لأحد من العمال رزق في العامة والخاصة ، فانه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين في الخاصة والعامة . وأطلق الجسور والمعابر للسابلة يسبرون عليها بدون جعل لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به ، وجعل لكل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة .

(١) استوثقت منه أخذت في أمره بالوثيقة ، وأهل الدعارة أهل الفساد والشر

ولى عامله على الموصل فلما قدمها وجدها من أكثر البلاد سرقاً^(١) وثقباً ، فكتب إلى عمر يعلمه حال البلد ويسأله أخذ الناس بالظنة ، وضربهم على التهمة أو يأخذهم بالبينة . فكتب : أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . وكتب إليه أحد عماله يذكر شدة الحكم والحباية ، فأجابه انه لم يكلفه ما يُعنتُّه وأن يجي الطيب من الحق ويقضى بما استنار له من الحق ، فإذا التبس عليه أمر يرفعه إليه قائلاً : فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولادنيا . وكتب إلى أحد عماله : إن العمل والعلم قريان فكن عالماً بالله عاملاً له ، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا فكان عملهم عليهم وبالاً . وكتب أيضاً : أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين . وكتب إلى عامل : أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتختمون^(٢) به الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالة ويركبون البراذين ، وخذ الفضل . وكتب إلى عامله : أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون .

وكتب إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً فانه لا يحل لهم لقوله تعالى : « سواء العاكف فيه (أى فى البيت) والبادى . والبادى من يخرج من الحجاج والمعتمرين سواء فى المنازل ينزلون حيث شاءوا ولا يخرج أحد من بيته . وكتب إلى عامله على مكة والطائف أن فى الخلايا صدقة فخذوها منها ، والخلايا الكوثر كوائر النحل . وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بالغاء الوظيفة والاقتصار على العشر ، وقال والله لان لا تأتيني من اليمن حفنة كتّم أحب إلى من إقرار هذه الوظيفة . وكان ضربها محمد بن يوسف على أهل اليمن ، وهى الخراج جعله وظيفة .

(١) يقال السرقة والسرق والسرق (٢) تحتم بالعقب لسه وبالذهب والفضة أيضا

وما كان عمر مذ كان والياً على المدينة يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدة من الفقهاء وحرصهم على أن يبينوا له زلاته إذا رأوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة في عهد خلافته أمر فأتى لرجلين منها وسادة قبالة فقال لهما إنه مجلس شيرة وفتنة ، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلى فإذا رأيتما مني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل . وكان يقول ، بعد أن ولي الخلافة ، لأن يكون لي مجلس من عبيد الله — أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً — أحب إلي من الدنيا وما فيها . وقال : وإني والله لأشتري أيلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال . فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريكك وتدة تحفظك . فقال : أين يذهب بكم والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف . وكان يحب السمر مع أهل الفصل فقيل له في ذلك فقال : لقاء الرجال تلقيح الأبواب . وقال : إن في الحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد المظالم ويحيي السنن ويطبق البدع ويقسم الأموال والأعطيات بين الناس . ورد ذلك إلى ما كانت عليه أي إلى آل الرسول .

أبعد عمر بن عبد العزيز عن سماء الشعراء والخطباء ، وما كان يحب المديح والهجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء في المحون والهرل^(١) ، وأنهم يمدحون من يعطيهم ويهجون من يصد عليهم ، وإذا كان رجل حدث وتقوى حجبتهم فأنقشوا^(٢) عنه كلهم ، وثبت العقهاء والزهاد فكان يعطيهم عطاء كثيراً ، أما الشعراء فأنقشوا بالقليل الذي كان يعطيهم من ماله الخاص ، وأعطى قوماً في حمص نصوا أنفسهم للعقود وحسوها في المسجد عن طلب الدنيا مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبحسن سياسته سكنت الخوارج في

(١) العقد العريذ لاس عند ربه (٢) تفرقوا

أيامه فلم يشوروا لأنه ناقشهم فأخفهم وأقسموا أن لا يشغبوا ما دام خليفة . وما حدثته نفسه قط باهراق دماء من خالفوه في مذهبه . وقد كتب إلى عامله على الكوفة أن يستتب القدرية مما دخلوا فيه ، فإن تابوا يحلى سبيلهم وإلا فينفيهم من ديار المسلمين . أراد بذلك حقن دمائهم ، وكان غيره من الخلفاء يبادر إلى قتلهم .

وطريقة عمر في إدارة ولاياته طريقة أسلافه في اطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا في أهم المهات مما يشكل عليه أمره . كتب إلى عامله على اليمن : أما بعد فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظلهمهم ، فتراجعني ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك ، ولا تعرف أحداث الموت حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت أردھا عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظلهمهم ولا تراجعني . وأملى على كاتبه يوماً كتاباً إلى عامله على الكوفة قال فيه : « إنه يُحِيل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلى » أضأن أم ماعز ، فان كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك كتبت إلى أذكر أم أنثى ، فإذا أتاك كتابي هذا في مظلمة فاعمل به ولا تراجعني » وكتب إلى آخر : « إنك ترد إلى الكتب فنفذ ما أكتب به إليك من الحق ، فانه ليس للموت ميقات نعرفه » .

قال له بعض أصحابه عليك بأهل العذر قال : من هم ؟ قالوا : الذين إن عدلوا فهو مارجوت منهم ، وإن قصرُوا قال الناس قد اجتهد عمر . وكان ينهى عماله عن المثلة ^(١) في العقوبة أى جز الرأس واللحية ، وينهاهم عن الاسراف حتى في القراطيس التى يكتبونها فيها . فقد قيل له : ما بال هذه الطوامير التى تكتب بالقلم الجليل وتمد فيها وهى من بيت مال المسلمين . فكتب إلى العمال أن لا يكتبن فى طومار ولا يمدن فيه . قالوا وكانت الطوامير شبرا ونحو ذلك . ومما كتب إلى أحد

(١) المثلة بضم الميم وفتحها العقوبة والتنكيل

عماله : أدق قلمك ، وقارب بين سطورك ، واجمع حوائجك فاني أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا يفتنعون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي . ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة فأملى أحسن إملاء ، وأبلغه وأوجزه ، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . قالوا وجعل يكتب بيده إلى المال في الأمصار (١) .

كان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم فقد وفد عليه بلال ابن أبي بردة بخصاصة فقال عمر للعلاء (٢) بن المغيرة بن البندار ، وقد رأى بلالاً يديم الصلاة : إن يكن سرُّ هذا كملانته ، فهو رجل أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : أنا آتيك بخبره ، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فإن لي اليك حاجة ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالي من أمير المؤمنين فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال : لك عمالتي (٣) سنة ، وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم . قال فاكتب لي بذلك . قال : فأرقد (٤) بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك . فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما رآه كتب إلى والي الكوفة : « أما بعد فإن بلالاً غرنا بالله ، فكدنا نفتر ، فسبكناه فوجدناه خبيثاً كله والسلام » وبلال هذا كان فيما يقال أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضياها . وكان عمر يقول : لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يستعمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرئع (٥) ، ومنصفاً للخصم ، ومقتدياً بالأئمة .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (٢) الكامل للبرد (٣) العمالة الأجرة (٤) أرقد أسرع

(٥) الرئع الطمع

سخط مسleme بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه : إن من حفظ أنعم الله رعاية ذوى الأسنان ، ومن اظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعت العريكان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سُخطك وما أنصفتك ، غصبتك على أن وليته ثم عزلته وخليته ، وأنا شفيعه ، فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتنوى ^(١) ما أفدته . فعفى عنه ورده الى عمله .

خطب يوما فقال : أيها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإنى لست بقاض ، ولكنى مقتد ، ألا وإنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ولكن الامام الظالم هو العاصى ، ألا لاطاعة المخلوق فى معصية الخالق . وقال من خطبة : وما منكم من أحد تبلفنا حاجته يتسع له ما عندنا إلا حرصنا أن نسد حاجته ما استطعنا ، وما منكم من أحد تبلفنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بى وبخاصتى حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . ومن غريب أمره فى إطلاق حرية القول أن يخطب الناس عبد الله بن الأهم ، ويذكر ما آل إليه أمر الأمة على عهد صاحب الشريعة والخليفتين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع ^(٢) أعوج . يقول هذا فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، وعمر يسكت عنه ، ولطالما أسمعته بعض الناقين على أهل بيته ما يغضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بغير الاغضاء يفهمهم من طرف خفى أنه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس الى قاص العامة ويرفع يديه إذا رفع ، وقاصه محمد بن قيس . وعلم أن أناسا من القصاص يصلون على خلفائهم وأئمتهم يلتمسون الدنيا بعمل

(١) تنوى كرضى هلك واتواه الله فهو توى أذهب فهو ذاهب والتوى الهلاك (٢) الضلع المبل

الآخرة، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وأن يلغوا ما سوى ذلك . وأدرك أن البادية يتحفزون إلى أن يرجعوا إلى سيرتهم في الجاهلية ، فبعث إليهم برجلين من أرباب الفقه يفقهان الناس في البدو وأجرى عليهما رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه إذا ولى أمر المسلمين « أن لا يضع لبننة على لبننة ولا آجرة على آجرة » لئلا يقع في ذلك حيف على الرعية . وهم يتولون من ذلك ما يصلحهم من إقامة القصور والبيوت، أما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير في أيامه في أكثر الأمصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من أموال الصدقات : يقبض عمله الصدقة ثم يقسمونها في الفقراء حتى إنه ليصيب الرجل الفريضان أو الثلاث فما يفارقون الحيّ وفيهم فقير ، ولا ينصرفون إلى الخليفة^(١) بدرهم . بعث عاملاً على صدقات إفريقية^(٢) فأراد أن يعطى منها الفقراء فالتسهم في كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت المال، فاشتري بها رقاباً وأعتقها وجعل ولاءهم للمسلمين . وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما أغنى الناس عمر .

ومن أهم ما عمله عمر في حسن الإدارة والسياسة أنه لم يشأ — لما وسدت إليه الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وقال : لَرَجُلٌ من المسلمين أحب إليّ من الروم وماحوت . وفي سنة ١٠٠ أمر أهل طرندة بالقول عنها إلى ملطية ثم اشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً ، وأنفذ المسلمين من ذل الأسر . وأراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفى بعد ذلك .

ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب ، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم ، ما أبكى للقل ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم

ومما قال : لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتي لظننت أنه يحيى الموتي ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكنني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهدها حتى صار مثل الراهب (١) .

وأحب عمر أن يحلى المسلمين من الأندلس لأنه كان يعتقد أن مقامهم فيها غير طبيعي ، لأنهم محاطون بالأعداء بعيدون عن مقر الخلافة . فأمر أحد عماله أن يرسم له مصوّر الأندلس ليرى في إجلاء المسلمين رأيهم . وكتب إلى عامله عبدالرحمن ابن نعيم يأمره بأفعال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم فأبوا ، وكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه : « اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم » كل أولئك يدل على أن عمر ما كان يريد التوسع في الفتوح ، ويحاول أن يقتصر على البلاد التي دخلت في المملكة الإسلامية حتى لا تهرق الدماء على غير طائل ، ويعمر الناس البلاد ، ويصلح أهلها صلاحاً دائماً على أن يكونوا بين أخرى يرجو ثواب الله ، ودنياوى يستجمع صفات الشرف في نفسه . وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم (٢) إلى الاسلام والطاعة على أن يؤمّلكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . ولما ولي اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ببلاد المغرب سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الاسلام فقرأه اسماعيل عليهم في النواحي فغلب الاسلام على المغرب . وكتب في اللواتيات : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أيها أوفيردها إلى أهلها ، ولواتية قرية من البربر كان لهم عهد . ولما استخلف كتب إلى ملوك

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) فتوح البلدان للبلاذري

ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات . ثم بلغ عمر عن عامله عصبية وكتب إليه أنه لا يصلح أهل خراسان إلا السيف فأنكر ذلك وعزله وكان عليه دين فقضاه . ووفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه ان قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فان قضى باخراج المسلمين أخرجوا ، فحكم القاضى باخراج المسلمين وعلى أن يناذوهم على سواء^(١) ، فسكره أهل سمرقند الحرب وأقروا فأقاموا بين أظهرهم . قال عمر لمزاحم مولاه : إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي فإن سمعت مني كلمة ترباً بي عنها أو فعلاً لا تحبه ، فعظني عنده وانهي عنه . وكان عنده رجلان فجعل يلحنان فقال الحاجب : قوما قد آذيتا أمير المؤمنين ، فقال عمر : أنت آذيتا لي منهما . هذا مجمل ما تم في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الإصلاح فأعاد إلى الخلافة جمالها وجلالها على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر بن الخطاب . ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله . وكان دأب عمر بن عبد العزيز أن يذكر الناس بالآخرة ويخوفهم العذاب ، ودأب ابن الخطاب أن يذكرهم العمل للدنيا مع شدة التمسك بحقوق الأخرى . فكانت إدارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده كذلك . لأن الناس فسدوا في أواخر القرن الأول أو بداؤا بالفساد ، فكان هيجيراه أن يذكرهم بالمعاد ويطهر أخلاقهم . وعمل عمر كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وهذا من أعجب ما يدون في تاريخ عظماء الأرض . ولما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟ . فقال : فيم أوصي ، فوالله إن لي من

(١) قوله تعالى : فأنذ اليهم على سواء . معناه اذا هادنت قوما فعلبت منهم القرض للعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقص حتى تعلمهم انك نقصت العهد فتكونوا في علم النقص مستونين ثم أوقع بهم (المصباح)

مال . فقال : هذه مائة ألف فر بها بما أحببت . وقال : أو تقبل ؟ قال : نعم . قال : ترد على من أخذت منه ظمأً . فبكى مسلة ثم قال : يرحمك الله لقد ألتت منا قلوباً قاسية ، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً .

الإدارة يزيد بن عبد الملك وهشام بن يزيد بن الوليد ومروان بن محمد .

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلحق بمولاه حتى عادت الدولة الى سابق عهدها إلا قليلاً . وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً وأعاد سب على المناير ، وكتب إلي عمال عمر : أما بعد فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أناكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس الى طبقته الأولى ، أخصبوا أم أجذبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام . ويزيد هذا أحد إخوة أربعة تولوا الخلافة ولقبوا بالأربعة ، وهذا كان على غير طريقة إخوته .

وجاء دور هشام في الخلافة وناهيك به من « رجل محشو عقلاً » وفيه من الحلم والأناة والعفة ما ظهرت آثاره في إدارة الملك وعدت أحد السواس الثلاثة من بني أمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وبه ختمت أبواب السياسة وحسن السيرة ، وكان يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة البرك والقنى في طريق مكة وغير ذلك ، ويسير عوكب كسائر الخلفاء من أهل بيته ، ولم يكن مثل ذلك لغير أخيه مسلمة بن عبد الملك . وافتتح عهده بعزل عمر بن هبيرة عن العراق وتولية خالد بن عبد الله القسري ، فأدار هذه الولاية^(١) العظيمة نحو خمس عشرة سنة بإقامة العدل وإفاضة السلام والعمل الصالح . وكان هشام على غاية الإخلاص متقللاً متشفئاً في ذاته ، يقوم بواجب الخلافة حق القيام ،

(١) معلقة الاسلام . مادة هشام

ومن أكبر همه إصلاح أموال الدولة ، وغلب عليه الاقتصاد حتى كاد ينقلب الى شيخ . بينما هو يوصى عقبال بن شُبَّة^(١) لما وجهه الى خراسان نظر هذا الى قباء الخليفة فقال : مالك ؟ قال : رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء فَنَكَ^(٢) أخضر فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره . فقال : هو والله الذى لا إله إلا هو ذاك ، مالى قباء غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا المال وصونه فإنه لكم .

وكانت دواوينه مثال التدقيق والعناية فى معاملة الرعية ومحاسبة العمال الذين يتصرفون له يتخيرهم من الأمناء البعيدين « من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى » ويعتمد فى توسيد عظام الأعمال على أناس من أهل بيته . قال عبد الرحمن ابن على : جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصبح للعامة وللسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشدَّ حصرًا فى أمر الصحابة ودواوينه ولا أشدَّ مبالغة فى الفحص عنهم من هشام .

كتب هشام إلى والى العراق لما أخذ ابن حسان النبطى فضر به بالسياط ، وكان أوغر صدر هشام عليه من إفراط الدالة واحتجان الأموال وكفر ما أسداه إليه من توليته إياه العراق : « ان هشاما آترك بولاية العراق ، بلا بيت رفيع ولا شرف قديم ، وهذه البيوتات تلوك وتعمرك وتسكتك وتتقدمك فى المحافل والجامع عند بدءة الأمور وأبواب الخلفاء . ومما قال له : أنه استعان بالجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلطهم عليهم . وقال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفسدت من مال الله ، وضيعت من أمور المسلمين ، وسلطت من ولادة السوء على جميع أهل كور عمالك تجمع اليك الدهاقين^(٣) هدايا النيروز والمهرجان ، حابساً لاكثره ، رافعاً لأقله مع مخابث مساويك^(٤) »

(١) تاريخ الطبرى (٢) الفلك محرركة حلد يلبس وروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعداها صالح لجميع الامزجة المعتدلة (٣) الدهقان جمع دهاقنة ودهاقين ، الشاجر وزعيم فلاحى العجم ورئيس الاقليم أو مقدم قرية أو صاحبها بخراسان والعراق (٤) يقال هو خبيث مخبت وفيه مخابث جمه

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البري من الياسة ، وذلك بقيادة ابنه معاوية وسليمان . وتقدمت جيوشه في الشرق فغزا الترك وأخذ دعاة بني العباس وثوار الخوارج في أيامه يعملون سراً وجهرًا إذا أمكنتهم الحال ، وعلى ما في هشام من بعد نظر لم يقدر مدى الدعوة التي عادت بعد على دولته بالوبال ، مع أنه كان معروفًا بالشدة في مثل هذه المسائل . وظل أعداء الدولة ينقضون في أساسها ، وما كان بما عرف فيه من العقل يريد إثارة الخواطر فيما لا يعود على السلطان بفائدة ، فقد لقيه في الحج سنة ١٠٦ سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظالم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب (علي بن أبي طالب) فأمر المؤمنين ينبغي له أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة . فشق ذلك على هشام وثقل عليه كلامه ثم قال : ما قدمنا لشم أحد ولا للعنه ، قدمنا حجاجًا ، ثم قطع كلامه ^(١) .

وذكروا أن هشامًا كان ينزل الرضافة من أرض قنشرين وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء كانوا ينتهبون ^(٢) ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجًا عن الناس ، فلما أراد هشام أن ينزل الرضافة قيل له : لا تخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون أن تجربوا بي ! فنزل الرضافة وهي برية وابتنى بها قصرين . وكان ^(٣) لا يدخل بيت ما له مال حتى يشهد أربعين قسامة ^(٤) أنه أخذ من حقه وأعطى لكل ذي حق حقه . وهو من أحزم بني أمية ومن أعقلهم يفضل على العلماء والفقهاء كثيرًا .

وتولى يزيد بن الوليد الخلافة فنقص الناس من عطائهم ، وكان أشد ضنانه

(١) تاريخ الطبري (٢) اتبذ الرجل ، اعتزل ناحية (٣) تاريخ الطبري (٤) القسامة الذين يسمون على دعواهم

بالمال من هشام ، فسمى يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان ، وكان الخليفة من بنى أمية إذا مات وقام آخر زاد في أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون : (عَزَّ بَعِيرٌ ^(١)) وزيادة عشرة) أى رجل برجل وزيادة عشرة . فسار هذا القول مسير الأمثال عند أهل الشام . وكان يزيد يهتم باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، وأفسد على نفسه بنى عميه ولد هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان . وأفسد على نفسه اليمانية وهم أعظم جند الشام . ولعل هذه الغلطات الادارية جسّمت ما اتهم به ، فكانت حجة للخوارج عند العوام حتى أوردوه موارد الهلكة . وقال خالد بن يزيد : يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لأقامة كتاب الله تعالى وعمالك يغمون ويظلمون . قال : لا أجد أعواناً غيرهم وإني لأبغضهم . قال : يا أمير المؤمنين ولّ أهل البيوتات وضم إلى كل عامل رجلاً من أهل الخير والعفة ، يأخذونهم بما في عهدك . قال : أفعل .

وأمر الوليد بن يزيد بعض رجاله بتعذيب بعض العمال لأنه كان رفع إليه أنهم أخذوا مالا كثيراً ^(٢) ولما قتل الوليد (١٣٦) كان في بيت المال سبعة وسبعون ألف ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها ، وتعهد للناس أن لا يضع حجراً فوق حجر ولا لبننة على لبننة ولا يكرى نهراً ولا يكنز مالاً ولا ينقل مالاً من بلد إلى بلد حتى يسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقله إلى البلد الآخر الذي يليه ، ولا يفلق بابه دونهم ولهم أعطياتهم في كل سنة وأرزاقهم كل شهر حتى يكون أقصاهم كأدناهم . أما مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فقد كان شيخ بنى أمية وكبيرهم ^(٣) « ذا أدب كامل ورأى فاضل » وهو أحزم بنى مروان وأنجدهم ^(٤) وأبلغهم ، ولكنه ولى الخلافة والأمر مدبر عنهم .

(١) العير السيد والملك (٢) تاريخ الطبري (٣) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه

هذا ما كان من إدارة دولة امتد حكمها مسافة ^(١) مائتي يوم من المشرق إلى المغرب تقرأ آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة . ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج . وكلاهما يدين لبني أمية ، وفي أيامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى ، وكانت كلفة الدولة نافذة في ثلاثة أقسام من الأرض : آسيا وإفريقية وأوربا . ملكوا من برارى جبل الطور إلى قفار ما وراء النهر ، ومن وادى كشمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر المتوسط وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأكسرة وما عجز عنه الأكسرة ، وأخذت الجزية التي قررها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق ، حتى صارت دمشق في نظر المسلمين كأنما هي رومية في نظر المسيحيين ، وانتشرت حضارة الاسلام ^(٢) في نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الاطلنطى إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في حوزة الاسلام أم كثيرة من السلالة السامية « العرب والسرانيان والكلدان » ومن السلالة الحامية « المصريون والنوبيون والبربر والسودان » ومن السلالة الآرية « الفرس واليونان والاسبان والأهنادى الهنود » ومن السلالة اللسماة بالتورانية « الترك والتتار »

كل هذا وما كان جميع الناس راضين عن إدارة الأمويين ولا سيما خصومهم السياسيون . ومتى كان الخصم ينصف خصمه . وإليك مثلاً من ذلك صدر عن أحد نساك الاباضية وخطبائهم وهو أبو حمزة يحيى بن مختار الخارجي ، خطب في مكة ووصف سيرة الخلفاء الراشدين ثم قال في بني أمية : وأما نوا أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش حرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون بالفريضة من غير موضعها ، ويضعونها

(١) حاة الاسلام لمصطفى نجيب (٢) الحضارة الاسلامية لاحد زكى

فى غير أهلها ، وقد بين الله أهلها لجمالهم ثمانية أصناف فقال : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) فأقبل صنف تاسع منها فأخذ كلها ، تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله اه والله أعلم بمقدار ما فى هذا الخطاب — على جلالة قدر صاحبه — من الخطأ والخطل . وفى حديث علىؓ : وأما إخواننا بنو أمية فقادة ذادة ، والناداة جمع ذائد وهو الحامى الدافع ، قيل أراد أنهم يذودون عن الحرم^(١) . ولكن غضب العربى فى رأسه فاذا غضب لم يهدأ حتى يخرج به بلسانه أو يده كما قال ابن عياش . لا جرم أن إدارة الأمويين لم تكن فى كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ، ولم تضعف فى الحقيقة إلا فى أيام يزيد بن الوليد ، وكان على غير طريقة أسلافه فى أعماله . وكان آخرهم مروان بن محمد على عظم همته وشدة بأسه مشغولاً بالدفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فصعفت إدارة المملكة . كانت حكومتهم عربية صرفة يتولها أهل البيوتات والأشراف على الأكثر . وقيل إن من أوكد الأسباب فى زوال سلطان بنى أمية استتار الأخبار عنهم وإغضاب قواد الدولة ، وانقسام البيت الأموى على نفسه بسبب ولاية العهد . ثم كان تأخير العطاء عن الجند فظاهروا غيرهم من العباسيين ولم يقاتلوا بإخلاص للخليفة كما كانوا من قبل . وساعد التوسع فى الفتوح على عهد هشام على اختلال نظام الدولة فاتسعت دائرة ملكهم الى ما لم تبلغه دولة الرومان . ثم إن انقسام العرب فى خراسان إلى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم على الولاية كان من الأسباب المسهلة لقيام الدعوة العباسية فى خراسان نفسها ، ولم يغن عن الأمويين من قتل من دعاة العباسيين الذين عملوا لدولتهم فى أرض أعدائهم وتحت سمع عملهم وبصرهم .

(١) النهاية لابن الأثير

ادارة العباسيين

تدابير السفاح والمنصور

اختار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس — يوم قام يدعو لآل العباس ويحاول انتزاع الملك من الأمويين — بلاد خراسان ميداناً لا يظهر دعوته لأنه كان جازماً كل الجزم ، أن أهل الشام والجزيرة والعراق والحجاز لم يكن هواهم مع آل العباس . بل كانوا متشبعين بالروح الأموي يعلنون في سرهم وجهرهم ولاء بني مروان ، وأن في أهل خراسان « العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليها الفساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فحمة تخرج من أجواف^(١) منكرة » وليس فيهم التحزب للقبيلة^(٢) والعصبية للعشيرة ، وهم مظلومون يؤملون الدول ولم يكونوا على العهد الأموي محل الرعاية ، وأقصاهم الأمويون عن الحكومة وجلبوا لهم العمال من الأحزاب العربية . وأن أهل خراسان لم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاحاً^(٣) لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجاً^(٤) ، فلما كان الاسلام صالحوا عن بلادهم فخف خراجهم ولم تسفك بينهم الدماء .

وأخذ الدعاة يدعون إلى الرضا من آل محمد ، ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بني العباس في سنة ١٢٧ وفي دار شخص منها يعرف بأبي النجم الميعطي صبح أول سواد لبسته المسودة . وفي شهر رمضان سنة ١٢٩ نشر العلم الأسود على

(١) معجم البلدان لياقوت (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣) الحى الملقاح والقوم الملقاح الذين لا يدينون للبلوك أو لم يصبهم في الجاهلية سباً (٤) كتاب العرب أو الرد على الشعمونية لابن قتيبة (٥) الفخرى لابن الطقطقي

خراسان ، وكان الخراج يحجي لابراهيم الامام وهو في الشام والحجاز . ولا مال لديه ولا نسب . ومروان بن محمد الجعدي الخليفة الأموي المبايع ومعه الجند والسلاح والمال والدنيا جميعها عنده ينتثر ملكه عقدة عقدة . وقلم سمع أهل بلد بجيش خراسان إلا سودوا أى لبسوا السواد شعمار بنى العباس قبل أن يوافيهم ، ونزعوا البياض شعار الأمويين المبيضين . وجيش خراسان أى الجيش العباسي على قلته يغلب وجيوش الأمويين على كثرتها تتوالى هزائهما . ويكتب كاتب مروان عبد الحميد بن يحيى كتاباً إلى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة باسم مروان ويضمنه مالو قرى ، لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم ، وكان من كبر حجمه يحمل على جمل^(١) ، فلا يرضى أبو مسلم أن يقرأ الكتاب ويجعله طعماً للنار . ومن الخزم أن لا يسمع وعداً ولا وعيداً ما دام قد دبر أمره تدبير من طب لمن حب^(٢) . وكان الامام يوصى جماعته أن لا يتجاوزوا الفرات . ومن حسن طالع الجيش الفاتح أنه اجتاز الفرات في مدّه ، فهلك القائد وانتصر جيشه . فلما بلغ مروان الجعدي ذلك قال : هذا والله الإيدار والافن سمع بميت يهزم حياً !

داول أبو العباس السفاح بين الكوفة والأنبار والحيرة والهاشمية من المدن ، فكان يتنقل فيها ، ولم يحمل له عاصمة مستقرة . واتخذ له وزيراً أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان وسلمه الدواوين ، وكان يسمى وزير آل محمد . وأصبحت الوزارة في الدولة العباسية مقررة القواعد والقوانين ، وما كانت تعهد في الدولة الأموية ، وكان من يستشيرهم الأمويون يسمون كتاباً ومشيرين على الأغلب ، ويسمى وزيراً من باب التجوّر لا على مثال بنى العباس . استوزر السفاح خالد بن برمك بعد أن قتل أبا سلمة الخلال ، فجعل خالد له دفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها

(١) سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (٢) يقال فلان طب بكذا أى عالم به وفى الحكم : وسمعت السكلاي يقول لإعمل فى هذا عمل من طب لمن حب . وعن الآخر من أمثالهم فى التنويع فى الحاجة وتحسنها أصنعه صنعة من طب لمن حب أى صنعة حاذق لمن يحبه (التاج)

وترك الدروج . وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صفًا مدرجة . دام ذلك مدة بنى أمية . ولما تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في الأمور أيام الرشيد اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعد^(١) .

عهد السفاح بإدارة البلاد الى رجال من آل بيته يستأصلون قواد الأمويين وجماعاتهم ، لا تأخذهم بهم رأفة ولا هوادة ، ويقتلون حتى من استأمنوا ، ويبحثون عنهم حتى في أقصى حدود المملكة ، ليجتثوا أصولهم ، فانتقموا لمن قتله الأمويون على نسبة عظيمة جداً ، أخذوا نارهم من أحيائهم بالقتل ، ومن أمواتهم بإحراق حشهم وتعفية آثامهم ، وما ارتكبوه في دمشق من نفس قبور خلفاء الأمويين والقضاء على كل أثر لهم كان سيئة وأى سيئة .

ولم يتفرغ أبو العباس السفاح لوضع أساس ثابت للإدارة لإنصرافه جملة واحدة الى توطيد دعائم الفتوح وقتال الخوارج عليه ، وسار في الجملعة على نظام الأمويين ، وكان أخوه أبو جعفر يتولى لأخيه كل أمر عظيم ، وكانت العراق على حظ وافر من ترتيب دواوينها وانتظام شؤون إدارتها على العهد الأموي بفضل من وليها من أكبر رجال الادارة والسياسة من بنى أمية . وكذلك الحال في معظم الأقطار تبدلت دولة بدولة وخليفة بخليفة ، ونسج الآخر على منوال الأول اضطراباً واختياراً ، وقل أن خالفه في ترتيبه ونظمه . وخطب السفاح قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول الله . وكان السفاح جميل العشرة جواداً بالمال ويحب مسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل الى امرأة وجارية ، فلا يزال يسمع سخفًا ويرى نقصاً . فقال له الهذلي : لذلك فضلكم

الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين . ومن أئمن ما وصل إلى أبي العباس من ميراث بني أمية بُردة الرسول وقضيته . وكان مروان^(١) بن محمد حين أُحيط به في مصر دَفَعهما إلى خادم له وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال . فلما أخذ الخادم في الأسرى قال : إن قتلتموني ضاع ميراث النبي ، فأمنوه على أن يسلم لهم ذلك . وكان للبردة والقضيب شأن وأى شأن عند جميع الخلفاء من بعده .

ولى المنصور الخلافة وكان أسنّ من أخيه أبي العباس السفاح ، ودبر للملكة في أيامه تدبيراً حسناً . أفضى إليه الملك وهو حنيك^(٢) كما قال عن نفسه ، قد حلب هذا الدهر أشطره^(٣) ، وزاحم المشاة في الأسواق ، وشاهدهم في المواسم . وغازاهم في المغازي قال : فوالله ما أحب أن أزداد بهم خبراً على أنى أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدى ، مذ تواريت عنهم بهذه الجدارات ، وتشاغل عنهم بأموارهم ، مع أنى والله ما لمت نفسي أن أكون قد أذكيبت عليهم العيون حتى أتتني أخبارهم وهم في منازلهم . والواقع أن أبا جعفر المنصور في تأسيسه دولة بني العباس كعأوية في تأسيس دولة بني أمية ، مع اعتبار الفرق بين عصريهما ، والسرّ الأعظم في نجاحهما أنهما مرنا على الإدارة قبل أن توسد الخلافة اليهما .

ولى المنصور أهله البلدان وفرق العائلات بين قواد من العرب وقواد من مواليه . فكان ينقل قواد العرب في أعماله لثقتهم بهم واعتمادهم عليهم ، ثم استعمل مواليه وغلمانهم في أعماله ، وصرفهم في مهاتمه ، وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢) الحنيك والمُحنك والمُحنك والمُحتنك (٣)

هو الجرب البصير بالأمر (٣) يقال الرجل المجرب للأمور فلان قد حلب الدهر أشطره أى قد قاسى الشدائد والرخاء وتصرف في الفقر والغنى وأشطره خلفه أو أخلاف من أخلاف الناقة . وحلب فلان الدهر أشطره أى مر به بخيره وشره

مراتبها . فهو الذى « أصل^(١) الدولة ، وضبط المملكة ، ورتب القواعد ، وأقام
الناموس ، واخترع أشياء ، ولم تسكن الوزارة فى أيامه طائفة لاستبداده واستغنائه
برأيه وكفاءته ، على أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لها
هيبة الوزراء » واجتمع له كثير من الخيل لم يعرف مثله فى جاهلية ولا إسلام ،
واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب ومؤنها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور .
ولقب بأبى الدوانيق لتشدده فى محاسبة العمال والكتاب . وجماع سياسته المالية
أن يدخر المال قائلاً : « من قلّ ماله قلّ رجاله ، ومن قلّ رجاله قوى عليه عدوه ،
ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومن اتضع ملكه استبيح حماه » وذكر أنه أخذ
أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلاً^(٢) . وكان يعطى الجزيل والخطير^(٣)
إذا رأى فى العطاء فائدة ، ويمنع اليسير والخطير إذا كان عطاؤه تضييعاً ، فكان
كما قال زياد لو أن عندى ألف بغير وعندى بغير أجرب لقمّت عليه قيسام من
لا يملك غيره . ومن أجل هذا كان يشر ماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق
صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل .
وعند محمد بن عبد الله لما خرج عليه إذا رجع إلى طاعته من قبل أن يقدر عليه
أن يعطيه ألف ألف درهم ، ويؤمّنه على نفسه وولده وإخوته ، ومن بايعه وتابعه
وشايعه ، ويطلق من فى سجنه من أهل بيته وأنصاره ، لأنه آثر أن يحقن الدماء
ويعطى هذا العطاء على أن يبعث البعوث وينفق الأموال . وأنفق ثلاثة وستين
ألف ألف درهم على جيش واحد كان مؤلفاً من خمسين ألفاً وجهه إلى إفريقية لقتال
الخوارج ، بمعنى أن أبا جعفر كان الحزم كله فى تدبير ملكه ، والحزم كله فى جمع
المال للشدائد والإيفاق منه عند الحاجة لقيام الدولة ، ويدكرون له فى باب الامساك
أخباراً كثيرة .

(١) الفخرى لابن الطقطقى (٢) تاريخ يعقوبى (٣) مروج الذهب للسعودى

يقول السعوى إن المنصور^(١) كان فى الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وهو أول من رتب المراتب من الخلفاء^(٢) وكان لبنى أمية بيوت بلا منعة ولا إذن ، وإنما كان الناس يقفون على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يصرفوا . فلما ولى بنو العباس وبنى المنصور بيته اتخذ فى قصره بيوتاً للإذن ، فجرى الأمر على ذلك . وكانت أرزاق السكتاب فى أيامه ثلثمائة ثمانية ، وكذلك كانت فى أيام بنى أمية . وكان المنصور متقللاً متقشفاً لا يحب البذخ والرفاهية يعاد كل ما يأكل ويلبس نعمة عظمى بالقياس الى حاله قبل الخلافة . فهو شديد فى قتال أعدائه ، شديد فى نظامه وترتيبه ، يعرف قيمة الوقت لا يصرفه إلا فيما ينفع الدولة فيعمل فى خدمتها ليله ونهاره ، وكان شغله^(٣) فى صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سمّاره ، وهو على انتباه لسكل دقيق وجليل . وكان يقول ما أخرجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم غص على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه . قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب يريد يكتب خبر هؤلاء على الصيحة .

استعمل المنصور فى ولاياته وأعماله قليلا من عمال الدولة البائدة وكثيراً من أهل بيته ورجالات العرب وبعض الفرس ، واستوزر ابن عطية الباهلى وهو من صميم العرب كما وزر له أبو أيوب المورىانى الخوزى وهو فارسى ، إلا أنه لا يترك

(١) مروح الذهب للسعوى (٢) لطائف المعارف للثعالبي (٣) تاريخ ابن الأثير

الوزير يعمل برأيه فقط بل ينهى إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها . وطريقته في حكم الأمصار طريقة اللامركزية ، أى طريقة الأمويين والراشدين من قبل . دعاه إلى اتخاذ هذه الطريقة تباعد ما بين أجزاء المملكة وبعد الشقة في نقل الأخبار على وجه السرعة ، على ما كان في عهده من انتظام البريد وحمام الزاجل تطير في المهمات السريعة . كتب المنصور إلى مسلم بن قتيبة يأمره بهدم دور من خرج مع أحد الخوارج وعقر نخلمهم . فكتب إليه : بأى ذلك نبدأ أبالنخل أم بالدور ؟ فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد فإني لو أمرتك بإفساد ثمرهم لكتبت إلى تستأذن في أية نمدأ أبالبرنى أم بالشهرين ^(١) » وعزله .

لم ينفثق على المنصور في ملكه الواسع خرق إلا سده ، لأن جيشه كثير ، وآلته تامة ، وقواده يعرفون منه أن من سياسته أن يقتل على التهمة ، فهم يصدعون بأمره كله ، ولا يخرجون منه مادة واحدة . إحتل الروم طرابلس الشام وظهر في الشام رجل من أهل النيطرة ^(٢) (١٤٢ — ١٤٣) وسمى نفسه ملكا ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع أنباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفحل أمرهم فظهر عليهم الجيش العباسي ، فأمر أمير دمشق بإخراج من بقى في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكورها ، فكان هذا التدبير الإداري مما انتقده الامام الأوزاعي بشدة ، لأنه إن كان من نصارى لبنان المعتدى على حقوق السلطان ، فإن منهم البريء وليس من الجائز ^(٣) أن يُجلى عن أرضه ويعامل الطائع كالعاصي .

كان المنصور في أكثر أموره وسياسته وتديره متبعاً في أفعاله لهشام بن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته ، وكان يقول إنه أى هشام فتى القوم أى رجل نبي أمية . وقال : الملوك ثلاثة معاوية وكفاه حجاجه ، وعبد الملك

(١) البرنى تمر أصفر مدور وهو أجود تمر واحدته برنية . والشهرين ضرب من التمر في نواحي البصرة (٢) تاريخ ابن عساکر (٣) فتوح البلدان للبلاذرى

وكفاه زياده ، وأنا ولا كافى لى . وكان يقول لأهل بيته : إنى لأجل موضعى حتى أحذر منكم لأنه ما فيكم إلا عم وأخ وابن عم وابن أخ ، فأننا أراعيكم ببصرى وأهتم بكم بنفسى فالله الله فى أنفسكم فصونوا ، وفى أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والاسراف فبوشك أن تصيروا من ولد ولدى إلى من لا يعرف الرجل حتى يقول له من أنت .

وكان المنصور آية فى الاسراف على عماله وارانهم على العدل ، يهددهم بالعقوبات إذا ولآهم ، وأكثرم يصححون ويناصحون ، ويختار أهل البلاء منهم . ولقد وفد عليه قاضى إفريقية ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فسأله كيف رأيت سلطانى من سلطان بنى أمية ، وكيف ماسرت به من أعمالنا حتى وصلت إلينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيت أعمالا سيئة وظالماً فاشياً ، والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئاً من الجور والظلم إلا رأيت فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعده البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت كان الأمر أعظم . فنكس الخليفة رأسه طويلاً ثم رفعه وقال : كيف لى بالرجال ؟ . فقال القاضى : أليس عمر بن عبد العزيز كان يقول ان الوالى بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فان كان برأ أتوه ببرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بنفجورهم . ووعظ الأوزاعى المنصور فقال له : إن السلطان أربعة : أمير يظلف^(١) نفسه وعماله ، فذلك أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع وترع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذلك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير رتع ويظلف عماله فذلك شر الأكياس .

كان المنصور يقول لابنه : يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه .

(١) يكلف نفسه

وكتب إليه عامله على إزمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال فوقع في كتابه : « إعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينهبوا . » ولقد حدث أن المنصور ولى المدينة رياح بن عثمان فخطب أهلها يهددهم ويقول : أنا الأفعى بن الأفعى ، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة ، المبيد خضراءكم المفتى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعا لا ينبج فيها كلب . فوثب عليه قوم منهم وكلموه وقالوا : والله يا ابن المجلود حذرين لتكفن أو لنكفئك عن أنفسنا . فكتب الوالى إلى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة فأرسل المنصور إلى رياح رسولا وكتب معه كتاباً يقول فيه : وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا لبيدلكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بماد الأرحام . فلما قرئ ، عليهم نادوه من كل جانب كذبت يا ابن المجلود حدين ، ورموه بالحصى وبادر القصور فأغلقها . فدخل عليه أيوب بن سلمة الخزومي فقال : أصلح الله الأمير إنما تصنع هذا رعاع الناس . وقال بعض من حضر من وجوه بنى هاشم : لا نرى هذا ، ولكن أرسل إلى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة فاقراً عليهم كتاب المنصور ، فجمعهم وقرأ عليهم فقالوا : ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا نخالفناك . وانفض الأمر بسلام .

وعنى المنصور بالمهارة فى ملكه يعمر الجسور والقنى والآبار ، ففشت فى أيامه أعمال العمران ، وحمل المهندسين من الآفاق إلى العراق خصوصاً لبناء مدينة بغداد ، واختار المنصور موقعها بنفسه لاحاطتها بدجلة والفرات بحيث يصعب على أكثر الجيوش تخطيها ، ولأن مواد الشام والجزيرة تأتىها بالفرات ، ومواد الموصل وما وراءها تحمل إليها فى دجلة . وبني الرصافة لابنه المهدي ليصير ابنه فى مدينة ، وعسكر بالجانب الشرقى ، ويصير المنصور فى مدينة ، وعسكر بالجانب الغربى ، فلا يشغب الجند .

وحج المنصور آخر حجة وكان موقناً أنه لا يرجع من حجه ، زاعماً أنه عرف ذلك من المنجمين ، فقال لابنه وأشار إلى سَقَط له فيسه دفاتر وعليه قفل لا يفتحه غيره : أنظر إلى هذا السقط فاحتفظ به ، فان فيه علم آباءك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة . فان حزبك أمر فانظر في الدفتر الكبير فان أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث ، حتى تبلغ سبعة ، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فانك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المديسة أى بغداد ، وإياك أن تستبدل بها غيرها ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها ، فانك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً . وأوصى ابنه بأهل بيته وأن يحسن اليهم ويقدمهم ، ويوطئ الناس أعقابهم ، ويوليهم المنابر . وأوصاه بأهل خراسان خيراً لأنهم أنصاره وشيعته الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولته ، وأوصاه أن لا يدخل النساء في أمره ، وأن يعد الكراع والرجال والجند ما استطاع ، وأن يعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وأن يباشر الأمور بنفسه ، وأن يستعمل حسن الظن ويسىء الظن بعالمه وكتابه ، وأن لا يهرم أمراً حتى يفكر فيه ، فان فكر العاقل مرآة تريه حسنه وسيئه . وقال له : يا بني لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختياره . وقال له أيضاً : إني تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك ، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك ، ومسجوناً لا يرى الفرج إلا منك ، فاذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ، لا تُمدد لهم كلَّ الد .

هذا إجمال ما عمله أبو جعفر المنصور وما أوصى به ابنه لاتمام ما بدأ به من

التراتب . وقد أقيمت الأيام كتاباً لابن المقفع في الصحابة^(١) أى أصحاب الخليفة ، كتبه إلى أبي جعفر أورد فيه ما يحتاجه الملك من الإصلاح ليسير على قواعد مطردة سليمة من الشوائب ، وأدركنا منه بعض المسائل الادارية التي كانت تشغل الأذهان في ذلك الزمان . بدأه بتذكير الخليفة بجند خراسان فقال : إنهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم منعة وهم أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذلل للولاة ، فرأى أن يكتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء ، بالغاً في الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤسائهم حتى يعودوا به دهاءهم . وارتأى أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وان منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا^(٢) كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ، ومن دونهم من العامة ، وأن يتعهد أديهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى . وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زى الترفين وشكلهم مثل الذى يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه . قال : ولا يزال يُطلَع من أمر أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقتله للإتِّراف^(٣) والإسراف وأهلها ، ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلوا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكثره ، بخلا أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالة بالنساء والمراتب .

وأشار أن يوقت الخليفة للجند وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له أنهم يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، هذا مع كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذى يخرج لهم ، وأن الجند يحتاجون إلى ما يحتاجون اليه من كثرة الرزق لغلاء السعر . والرأى أن يجعل بعض أرزاقهم طعاماً وبعضه علفاً يعطونه

(١) رسائل البلغاء نشرها المؤلف (٢) أحسن اليهم (٣) أترف الرجل أعطاه شهورته

بأعيانه . ورأى أن لا يخفى على أمير المؤمنين شئ . من أخبار هذا الجند وحالاتهم^(١) وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف ، وأن يحتقر في ذلك النفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح « فان ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركة من الاستعانة فيه بغير الثقة فيصير جنة للجهالة والكذب » ووصى بأهل المصرين الكوفة والبصرة قائلاً إنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة الخليفة ومعينيه ، وأن في أهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه . وأراد على أن يكتفى بهم ، وأنه ما أزرى بأهل العراق إلا أن من وتلوا العراق كانوا أشرار الولاة ، وأعوانهم من أهل أمصارهم كذلك « فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول^(٢) وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم أو وجدوه بسبيل شئ . من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حينما وقعوا من صحابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يُقصدا حتى يلتمسوا فأبغوا ذلك بهم أن يعرفوا أو ينتفع بهم » « فنزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً ، وأحلى السنة ، وأرفق تلطفاً للوزراء أو محملاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء » . ثم ذكره بإصلاح القضاء وما يصدر عن القضاة من الأحكام المتناقضة ورجا أن يوحد القضاء ويوضع للقضاة كتاب يرجعون إليه .

وتعرض لأهل الشام وذكره أنهم أشد الناس مؤنة وأخوفهم عداوة وبائقة ،

(١) الحالة كسحابة الدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم (٢) الفصل من الرجال الرذل الذي لا مروءة له ج أفضل وفسول

فمن رأى أن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، ولا يعامل أهل الشام كما عاملوا أهل العراق من جعل فيهم إلى غيرهم ، وتنحيتهم عن المنابر والمجالس والأعمال ، كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنعه أمراؤهم للعامة . « ورجاه أن يأخذ منهم أهل القوة والعناء وخفة المؤنة والعفة في الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . وقال بهذا المعنى في إقامة العذر لأهل الشام على نزواتهم ، وأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدوينهم .

وذكره بأصحابه « الذين هم بهاء فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصة من عامته » وأبان أنها مراتب طمع فيها الأوغاد « ممن لا ينتهي إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيره من سروات قریش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا اللوضع رعاية رحم ، ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء . » ثم ذكره بأمر فتیان أهل بيته وبنی أبيه وبنی علی وبنی العباس .

ووصفهم بأن فيهم رجالا لو تمتعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوها وكانوا عدة لأخرى .

ومن أهم ما ذكره به أمر الأرضين والخراج . قال : فليس للعمال أمر ينتهون اليه ولا يحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأقنون لها في العمارة ، ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم ، فسيرة العمال فيهم إحدى ثنتين . إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالة ممن وجد . وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من يعمر ويسلم من أحرب . وأراده على أن يعمل رأيه « في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها » ليكون في ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال . قال : « وهذا رأى مؤنثه شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله ، من تخير العمال وتفقدهم » .

ثم ذكره بجزيرة العرب وأن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها في الأمصار والأجناد والثغور والكور . ومما قاله فى خاتمة كتابه : « إن بالناس من الاستخراج^(١) والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التي يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو نفر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون ،

(١) الاستخراج والاختراع الاستنباط

يذكرون ويبصرون الخطأ ، ويعطون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ، ويحذرون
الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ،
ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأى والرفق والنصح ،
ويرفعون ما أعياهم الى ما يرجون قوته عليهم ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ،
بصراء بالرأى حين يبدو ، وأطباء باستنصاله قبل أن يتمكن ، وفي كل قوم خواص
رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك وتلطف لهم ، وأعينوا على رأيهم ،
وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويسطه لهم . وخطر هذا جسيم في
أمرين أحدهما يرجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفة ، والأمر
الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا
يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيح نحوه » قال : « وقد علمنا علماً لا يخالطه
الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ،
وأن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها »
« فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون
منهم ، اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بحمد ونصح ومثابة وقوة ، جعل
الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لاصلاح الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم
الله به عليهم ، وبلاغاً الى الخير كله ، وحاجة الخواص الى الإمام الذي يصلحهم
الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك » .

هذه زبدة تقرير ابن المقفع للمنصور وفيه صورة جميلة مما تحتاجه إدارة البلاد
من الإصلاح ، وما يجب القيام به لاستصلاح الجند والرفق بأهل الكوفة والبصرة ،
والعناية بأهل العراق والعطف على الحجاز واليمن واليمامة واختيار العمال الكفاة
والرجوع الى أهل الرأى ، واصطناع أرباب العقل من أهل الشام وإشارة الى أن
بعضهم بنى العباس من الأمور الطبيعية لأن الملك كان فيهم فانتقل الى غيرهم ،

وعرفه الطرق الى استصلاح العامة واختيار الخاصة من الأصحاب والموالين الى غير ذلك من الأمور التي يمكن تطبيقها لعمران البلاد ورفع الحيف عن الخلق ، والانتفاع بالقوى المفيدة للرعية وأرضهم . ومن أهم ما وقفنا عليه هذا التقرير أن الأمة لم تعد في إبان مجدها رجالاً يدلونها على مواطن الضعف من سلطانها ، ومعالجة الإصلاح بالعقل حتى يبلغ كاله ، والأخذ في كل أمر من أمور الدولة بالحزم النافع والمصلحة الشاملة .

ادارة المهدي والهادي والرشيد .

سار المهدي بالخلافة على الخطة التي اختطها له أبوه ، ينظر في الدقائق من الأمور ، ويظهر أبهة الوزارة ، لكفاءة وزيره أبي عبيد الله بن معاوية بن يسار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب له الديوان^(١) وقرر القواعد « وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة » اخترع أموراً منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأ ولا يقاسم ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وضبطت الأمور في أيامه ضبطاً محكماً . وكان من جملة حظ المهدي أن يكون له وزراء من هذا الطراز العالي ، وهو يعتمد عليهم ويضع ثقته برحال دولته ، واستوزر أيضاً يعقوب بن داود فخرج كتاب المهدي الى الديوان أن أمير المؤمنين آخى يعقوب بن داود ، فلم يكن ينفذ شيء من كتب المهدي حتى يرد كتاب الوزير يعقوب معه الى أمينه بانفاذه . أي أن الخليفة ووزيره كانا يراقب أحدهما عمل صاحبه لتقرير ما تلزم به المصلحة قبل إمضائه .

ووضع المهدي ديوان الأزمّة ولم يكن لبنى أمية ذلك . ومعنى ديوان الأزمّة أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك

(١) الفخري لابن الطقطقي

مختلطة^(١) . والسبب في وضع ديوان الأزمة أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمam يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولى على كل ديوان رجلاً . وأنشأوا ديواناً سموه ديوان النظر أى المسكاتبات والمراجعات تسهيلاً على أرباب المصالح . والديوان يقسم أربعة أقسام^(٢) : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان المال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال ينظر في الدخل والخرج .

والمهدي أول من جلس للمظالم من بنى العباس ، يقيم العدل بين المتظالمين ، ومشى على إثره الهادي والرشد والمأمون . وكان المهدي آخر من جلس للنظر فيها . وبسط المهدي يده في العطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار . وأجرى المهدي على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق ، وأمر باقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ببغداد وإبل . ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ولا في قطر من الأقطار . وكان وزيره « يرفع اليه النصائح في الأمور الحسنة من أمور الثغور والولايات وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزab وفكالك الأسرى والمحبيين والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعفين » واشتد المهدي على الزنادقة وقتل في جملة من قتل ابن وزيره أبي عبد الله بن معاوية فاستوحش كل منها من صاحبه فاعتزل الوزير الخدمة .

قال رجل المهدي عندي نصيحة يا أمير المؤمنين فقال : لمن نصيحتك هذه لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين . قال : ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سعايته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا تشفى غيظك أو عدواً فلا نقاب لك عدوك . ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا

(١) الجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (٢) الأحكام السلطانية للماوردي

ناصح إلا بما فيه رضى الله وللمسلمين صلاح ، فأنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ، ومن استترعنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فأنى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع العاجلة ، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . وهذا أرق الأدب فى استمالة القلوب وحسن سياسة الناس ، ومن وفق إلى تطبيق هذه القواعد على أمتة لا يحتاج إلى سلاح يخيفهم ولا إلى جند يضبطهم .

وأفضت الخلافة إلى الهادى ، والدواوين مدونة مرتبة ، فمن ديوان الخراج ، إلى ديوان الضياع ، إلى ديوان الزمام ، إلى ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، إلى ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات ، إلى ديوان الرسائل ، إلى ديوان البريد والخرايط ، إلى غير ذلك من الدواوين . ومن أهم ما عمله الهادى فى عهده القصير أن منع أمه الخيزران من التدخل فى أمور السلطان لقضاء حوائج الناس ^(١) . وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه قائلاً لها : أمالك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحنى فاك فى حاجة لى أو ذى ، فعملت والدته بما رسم لها ابنها . وكانت فى أول خلافة الهادى تفتات ^(٢) عليه فى أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر ^(٣) والنهى . أما ابنها فكان من رأيه أنه « ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك » وقال : « ما للنساء والكلام فى أمر الرجال » ولما كان فى آخر أيامه من الدنيا استدعاها وقال لها : قد كنت نهيتك عن أشياء وأمرتك بأخرى على ما أوجبه سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك . ولم أكن عاقاً بل كنت لك صائناً وبراً واصلاً ، ثم قضى نحبه قابضاً على يدها واضعاً لها على صدره .

(١) مروج الذهب للسعودى (٢) تاريخ الطبرى (٣) مروج الذهب للسعودى

وبإبعاد الهادى النساء عن الوساطات والشفاعات عمل بوصية جده المنصور لابنسه المهدي ، وجعل أمور الدولة تسير في قواعدها المرعية على ما تقضى به أحكام الشرع والعقل ، ويراها الوزراء والأمراء والقضاة . وكان الهادى جباراً عظيماً وهو أول من مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرفهة ، والأعمدة المشهورة ، والقسي الموتورة ، فسكنت عماله طريقته ، ويمموا منهجه ، وكثر السلاح في عصره .

سار الرشيد في إدارته على نهج قويم ، وأعاد إلى الخلافة رونقها الذي كان لها على عهد جده المنصور ، وما كان بالمسرف ولا بالمبخل ، وسمى الناس أيامه « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . وكانت دولته ^(١) « من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورويقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة : جى الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر » وقلد وزارته يحيى بن خالد وقال له : « قد قلدتك أمر الدولة وأخرجته من عنق اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ودفع إليه خاتم الخلافة . أما الولايات فقد فوضها لأمرأ جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون ^(٢) في تدبير الجيوش والأحكام ويقلدون القضاة والحكام ، ويجبون الخراج ويقبضون الصدقات ، ويقلدون العمال فيها ، ويحمون الدين ويقيمون حدوده ، ويؤمنون في الجمع والجماعات أو يستخلفون عليها ، ويسرون الحج من أعمالهم فإن كانت أقاليمهم ثغراً متاحماً للعدو تولوا جهاده .

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بنى العباس تقسيمها في زمن الرشيد ، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج ووقت ليفزو ، ووقت ليصطاف ويرتبع في الرقة ، ويترك قصر الخلد في بغداد . ولقد كان الروم من جيوش الرشيد في بلية فما غزتهم مرة إلا وحالفها التوفيق ، وبعث صاحب الروم جزية رأسه وبطارقته ، وجرى

(١) الفخرى لابن الطلقى (٢) الأحكام السلطانية للباردى

الفداء بين الروم والعرب حتى لم يبق من المسلمين أسير واحد بأيدي الروم ، وما
استعلت فتنة في أرجاء مملكته إلا أطفأها ، ومنها فتنة النزارية واليانية في الشام
أى قيس ويعن عادوا إلى ما كانوا عليه فقتل منهم بشر كثير ، فأرسل عليهم ابراهيم
ابن محمد المهدي والياً ففكر أن يعمد إلى طرق إدارية لقطع شأفة هذه الغائلة ،
فرأى أن يلهمهم بقشور ، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ولا يصدعها ، فارى
استقبالهم على قانون من « التشريعات » أو « البروتوكول » أرضاهم به وما تكلف
شيئاً ، فقد أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين ، وأمره بتسمية أشرافهم ، وأن يقدم
من كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلا الناس من الجانب الأيمن
مضرباً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضربى ومن دون المضربى يمانى ، حتى
لا يلتصق مضربى بمضربى ولا يمانى بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً :
« إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب ، فجعل مضرب عمومتهما ، وجعل
يمن خولتها ، وافترض عليها حب العمومة والخولة ، فليس يتعصب قرشى إلا للجهل
بالمفترض عليه » ثم قال : يا « معشر مضرب كائى بكم وقد قلتم إذا خرجتم لإخوانكم
من يمن قد قدم أميرنا مضرب على يمن ، وكائى بكم يا يمن قد قلتم وكيف قدمكم
علينا ، وقد جعل بجانب اليماني مضرباً وبجانب المضربى يمانياً فقلتم يا معشر مضرب
إن الجانب الأيمن أعلا من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن لمضرب والأيسر ليمن ،
وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ، ألا أن مجلسك يا رئيس المضربة في غد من
الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمانية في غد من الجانب الأيمن . وهذان
الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان في جهته متحولاً عنه في غده إلى
الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً . » وبمثل هذه القوانين الإدارية زحج
السلام إلى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية وبأو^(١) القبلية .

قال الجاحظ^(١): حدثني ابراهيم بن السندی قال لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسوى بين القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلكم إخوة ، وليس للنزاري شيء وليس للياني مثله قال : وكان يتعدى مع جلة من جلة الفريقين ، ويسوى بينهم في الإذن والمجلس .

ومن عمال الرشيد من أبدع طرقاً جديدة في الادارة ، ولي عمر بن مهران مصر فقال هذا لعلامه : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجراب . لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من الألفاف^(٢) ويقبل المال والثياب ، ويوقع عليها أسماء من بعث بها ، ثم وضع الجباية . وكان بمصر قوم قد اعتادوا المثل وكسر الخراج ، فاستأدى من الخراج النجم الأول والنجم الثاني ، فلما كان في النجم الثالث وقعت المطالبة والمطل فأحضر أهل الخراج والتجار فطالبهم فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر باحضار تلك الهدايا التي بعث بها إليه ونظر في الأكياس وأحضر الجهبذ^(٣) فوزن ما فيها وأجزى أثمانها عن أهلها ثم قال : يا قوم حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم اليها ، فأدوا اليها مالنا . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره^(٤) .

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل مادي وجل من شؤون الملك « ومن أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً » يصطنع الرجال ويحلم عن مساوي ، تغتفر من رجاله ، ويسعى في عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية ، يأخذ بأيدي العلماء والباحثين ويجمع اليهم ويأنس بهم . ولما رأى أن ملكه في خطر محقق من نفوذ آل برمك وزرائه وخاصته لانصراف الوجوه اليهم لسكرة ما أحسنوا إلى الناس ولا إجماع القاصي والداني على

(١) الحيوان للجاحظ (٢) الألفاف الهدايا وأحدها لطف وألفه بكذا اتخفه به وبره وتكون في الغالب من المأكول والمشروب والمشموم (٣) الصراف أو قابض المال (٤) تاريخ الطبری

جهم حتى ساموا الخليفة أو أربوا عليه في المكانة ، أمر بالقبض عليهم ومصادرتهم وقتلهم وما أراد أن يبوح بسر ما أتاه ، فرجم القوم الظنون به ، وذلك لأنه خافهم على ملكه ، وهم فرس لهم قديم يمتون إليه من الإمارة ، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية . ونشأت من قتلهم قصة طويلة سداها ولحقتها المبالغة ، بل الاختلاق ، شغل الرشيد بها الناس عن نفسه وعن سياسة بلاده .

ووضع الرشيد عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وترك بعض أهل الضياع في فلسطين أرضهم فوجه اليهم أحد كبار قواده فدعا قوماً من أكرتها ومزارعها إلى الرجوع إليها ، على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم ، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف . وجاء قوم منهم بعدُ فردت عليهم أرضهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود . والرشيد يسد كل خلل في مملكته ، ويهتم كل الاهتمام أن يخفف عن الفلاحين . وكان رجاله لا يألونه نصحاً لأنه يهتم لكل ما ينفع . وفي الرسالة التي كتبها له قاضيه أبو يوسف في الخراج نموذج من هذه العناية . ومما قال فيها : وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قلمهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ، وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح ، فإذا وليتها رجالاً ووجد من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما تجرى ، ولا تجرى عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة . . . ويكون من يولى ققيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي مؤتمناً على الأموال ، إني قد أراهم لا يحتسبون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولأه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناصية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك . . . وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لهم جلباباً

من الذين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء ، من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، والذين للمسلم والغلظة على الفاجر . والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم والعفو عن الناس . . . فان كل ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والعسف فانه يحمل على أنه قد أمر به وقد أمر بغيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة للموجة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تصدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالى تعدى بظلم أو عسف وخيانة لك فى رعيته واحتجبان شئ من النية ، أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمر رعيته أو تشركه فى شئ من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروّع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : « باغى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحي تخليط كثير ومحابة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاية والرعية ، وأنهم ربما ما لوا مع العمال على الرعية وسترأ أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا فى الولاية والعمال بما لم يفعلوا إذ لم يرضوهم وهذا مما ينبغى أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار . » وكيف ينبغى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال وليدر عليهم ، وتقديم اليهم فى أن لا يسترأ عنك خبراً عن رعيته ولا عن ولاتك ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليك خبراً ، فمن لم يفعل منهم فنسكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار فى النواحي ثقات عدولا فلا ينبغى أن يقبل لهم خبر فى قاض ولا وال . إماما محتاط بصاحب البريد على القاضى والوالى وغيرها فاذا لم يكن عدلا فلا يحل ولا يسمع استعمال خبره ولا قبوله ^(١)

يمثل هذا اللسان يثلطف أبو يوسف وينصح خليفته في اختيار عمال الخرج والأمناء على الاخبار لمراقبة العمال والولاة والقضاة . على أن الرشيد أخذ العمال^(١) والثناء والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبّلين^(٢) وكان عليهم أموال مجتمعة فطولبوا بصنوف من العذاب . وهذا ما دعا بعض الناس في الدولة العباسية الى أن يقولوا إن بنى أمية^(٣) كانت مصائبهم في أديانهم وأن جبايتهم وأموالهم سليمة لم يظلموا في العشر والخراج ، أما بنو العباس فمع سلامة أديانهم كانت أموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش . وأوضاع كل أمة تثقل وتخف في الميزان بحسب غناء القائمين على تطعيمها ، يزنون بالقسطاس المستقيم أو يُخسرون إذا كالوا أو وزنوا ولى الرشيد احدثهم بعض اعمال الخراج . فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى : اوصياه ، فقال له يحيى : وفرّ واعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد : إعدل وأحسن .

وانتهى إلى علم الرشيد أن عامل الأهواز قد اقتطع مالا كثيرا من مال البلد . ولما سأله الرشيد أجاب : وحلفت بأيمان البيعة أنى قد نصحت وشكرت الصنيعة ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله لأصدقنك عن أمرى : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك وفعلت ما يفعله الناصح لسيده . وكنت إذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع وجعلت لى مع التجار فيه حصة ، فر بما ربحتم وربما وُضعت . الى أن اجتمع لى من ذلك ومن غيره فى عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فاتخذت أزحاً^(٤) كثيراً عقد بالجلس والاجر كأنه مجلس ، وجعلت بين يديه موضعاً أقعد فيه وعيبت البدر شيئاً بعد شيء فى الأزج ثم سدده ، وهو بحاله ما أشك أن العنكيوت قد

(١) تاريخ البعقوبى (٧) المقلون ملتزموا الحباية من الولاة ، والدهاقين التجار أو رؤساء الاقاليم ، والثناء السكان جمع ثانٍ (٣) شوار المحاضرة للتوشى (٤) بيت بنى طوليا

نسجت على ما فيه ، فخذها وحوّل وجهك إلى عبدك . فقال الرشيد : بارك الله لك في مالك ، فارجع الى عمالك ودار رعيتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يرسف في قيده قال له الرشيد : وليتك دمشق وهي جنة بها غدر تسكفاً أمواجها على رياض كالزرايى واردة منها كفايات المؤمنين الى بيوت أموالى فما برح بك التعدى لأرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من الفقر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهة ولكن وليت أقوماً ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا الى ميدان التعدى ، ورأوا المراغمة بترك العارة أوقع بإضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة . فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مسألتى .

وكان الرشيد إذا أحسن من عامل له خيانة دبر له من صائب رأيه ولطف حيلته ما يدل على بعد نظره وحسن إدارته وجميل تدبيره ، وشدة غيبرته على مصلحة ملكه ، فيمسك أقصر الطرق الى القضاء على الفتن الملحوظة والفوائى المستجنة ، فيضرب على المسى ، بسيفه وسانه ، كما يغمر الحسن بإنعامه وإحسانه . أراد مرة أن يعزل على بن عيسى عن خراسان — وخراسان كثيراً ما كانت تشغل بال الرشيد كما شغلت بال أسلافه — فدعا هرثمة بن أعين مستخلياً به فقال : إني لم أشارك فيك أحداً ، ولم أطلع على سرى فيك . وقد اضطربت على ثغور المشرق ، وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهدى ونبذه وراء ظهره . وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب اليه أخبره أنى أمدته بك ، وأوجه اليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمنن إليه قلبه ، وتطلع إليه نفسه . وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تفتضه ، ولا تطلعن فيه حتى تصل الى مدينة نيسابور ، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله . وأنا موجه معك رجاء الخادم يكتب أكتبه الى على بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه ، وهوون

عليه أمر على فلا تظهرنه عليه ، ولا تعلمنه ما عزمت عليه ، وتأهب للمسير وأظهر
لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لعل بن عيسى وعوناه . ثم كتب الى علي
ابن عيسى كتاباً بخطه نسخه : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من
قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت انشاء ملوك العجم
حوالك وأتباعك ، فكان جزاى أن خالفت عهدى ، وفبذت وراء ظهرك أمرى ،
حتى عشت فى الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته ، بسوء سيرتك ،
ورداء طمعتك ، وظاهر خيانتك ، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى نثر خراسان ،
وأمرته أن يشدد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء
ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فان
أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم
السياط ، ويحل بكم ما يحل بن نكث وغير ، وبدل وخالف ، وظلم وتعدى وغشم ،
إنتقاماً لله عز وجل بادنًا ، ونخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض
نفسك لالتى لا سوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً . »

وكتب عهد هرثمة بخطه ونصه « هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى
هرثمة بن أعين حين ولاه نثر خراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ،
ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله . فيحل
حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى
العلم بكتاب الله ، أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ،
وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعمله وكتابه ، وأن يشد عليهم
وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين
وفى المسلمين ، فإذا استنظف ما عندهم وقيلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين
والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه اليهم ، فان ثبت قبيلهم حقوق لأمر

المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نعمته ، حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تلفت أنفسهم وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق ، أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطئ ، وخشونة المظعم والمشرّب وغلظ اللبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك ، فإني آثرت الله وديني على هواي وارادتي ، فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك . ودبر في عمال السكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحش معه الى امرير بهم وظن يرعهم ، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره ان شاء الله . هذا عهدى وكتابي بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحمة عرشه وسكان سماواته وكفى بالله شهيداً . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته . »

أمثلة تكشف بها حقيقة إدارة الرشيد وبعد غوره في تراتيبه . ولقد رفع اليه أن رجلا بدمشق من نقايا بني أمية ^(١) عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والأموال مطاعا في البلد له جماعة وأولاد وماليك وموال ، يركبون الخيل ، ويحملون السلاح ، ويفزون الروم ، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه ، فعظم ذلك عليه ، فاستدعى منارة صاحب الخلفاء وأمره بالخروج الى دمشق وضم اليه مائة غلام وأحمله لذهابه ستة واياه ستة ويوما لعوده ، وأمره ان يتفقد دار الرجل وجميع ما فيها وولده واهله وحاشيته وعلمانه ، وما يقولون وقدر النعمة والحال والحل . فجاء به في اليعاد المضروب وقص عليه ما سمعه وراه . فعرف الرشيد ان الرجل محسود على النعمة مكذوب عليه ، فأذناه واعتذر عن استدعائه ، وقال له : سل ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك . فقال : عمال امير المؤمنين منصفون وقد

(١) الفرّج بعد الشدة للتوحى

استغثت بعده عن مسألته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة ، وكذلك أمور اهل البلد بالعدل الشامل فى ظل دولة أمير المؤمنين . فأعاده الى بلده على خير حال ولم يترك للوشاة سبيلا اليه .

ولقد توسع الرشيد فى توسعة سلطة عماله ، ليستقيم أمر البلاد ، فقد شخص الفضل بن يحيى الى خراسان والياً عليها فبنى فيها المساجد والرباطات ، واتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولاءهم لهم ، وذكروا أن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنينية وخلف الباقي بخراسان على أسمائهم ودفاترهم . كتب الى إزمينية للرشيد الى وزيره إن قوماً صاروا الى سبيل النصح ، فذكروا ضياعاً بإزمينية قد عفت ودرست ، يرجع منها الى السلطان مال عظيم ، وأنى وقفت عن المطالبة حتى أعرف رأيك فكتب اليه : « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، والسنة السعاة فى أيامنا كليلية خاسئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ، فإننا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لاهياء الأعلام الدائرة ، وجنبى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكنْتَ إِذَا حَلَّتْ بَدَارُ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكْتَ عَاراً
وَأَجْرَ مَوْرَكٍ عَلَى مَا يَكْسِبُ الدَّعَاءُ لَنَا لَا عَلَيْنَا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضى ، فأما ذكر جميل ، وإما خذى طویل . »

ومما يعد فى توسيع السلطة أن قاضى الرشيد أبو يوسف كان أول من دعى فى الاسلام قاضى القضاة ولم يقع^(١) هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه ، فإنه كان قاضى المشرق والمغرب ، فهو قاضى القضاة على التحقيق ، والقضاة يعينون باقتراحه ،

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

وكان القاضى فى العواصم لا يتناول أقل من ألف دينار فى السنة ، وأجرى على قاضى مصر^(١) مائة وثمانية وستين ديناراً فى كل شهر وهو أول قاض أُجرى عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القاضى سبعة دنانير كل يوم ثم صار أبو الجيش يجرى على قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجرون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض أو من خراجها والجزية .

والرشيد لا يرضن بالمسال فى سبيل الدولة ، والمسال وحده لا يكتفى الخليفة أمر الفتوق التى تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته فى تلافى شرها ، والرشيد على كثرة بذله المأثور خلف من المال « ما لم يخلف »^(٢) أحد مثله مذ كانت الدنيا ، وذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الصياع والعقار ما قيمته مائة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف دينار » قال ابن الأثير كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا فى بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك .

إدارة الأميين والأممونه

لم يعرف التاريخ شيئاً من التدبير الذى جرى عليه الأميين بعد الرشيد ، لأنه كان يعبت وقلمها يجد ، شغل نفسه والأمة معظم أيامه بالفتن ، لنزع ولاية العهد من أخيه المأمون وتوسيدها إلى ابنه الرضيع ، وكان من أثر هذا التطاحن بين الأخوين أن خرب قسم عظيم من مدينة دار السلام ، دح غيرها من الأراض والولايات ، وسالت سيول الدماء ، وفرق الأميين ما فى خزائن الدولة من الأموال والأعلاق والذخائر ، حتى دالت الخلافة وضاعت بعد الرشيد ، ولم يرزق الأميين وزراء كوزراء أخيه : طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين والحسن بن سهل والفضل بن سهل ثم أحمد

(١) أخبار الولاة والقضاة للكندى (٢) لطائف المعارف للتحالى

ابن يوسف وعمرو بن مسعدة وأضرابهم ، بل اصطنع من نبذهم أبوه الرشيد ، وكان أقصاهم لسوء سيرتهم ، فربح المأمون برجاله وعقله ، وخسر الأمين برجاله وضعف تدبيره .

وبينا كان المأمون في مرو ينظر في أمور الدولة كان الأمين يوجه « إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه . . . وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه . . . وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما » .

ولما حصر الأمين وضعفه^(١) الأمر قال : ويحكم أما أحد يستراح اليه ! فأتوه رجل من العرب فلما صار اليه قال له : أشرك علينا في أمرنا . قال له : يا أمير المؤمنين قد بطل الرأي اليوم وذهب ، ولكن استعمل الأراجيف فإنها من آلة الحرب . فكان يضع له الأخبار فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها . فالأمين كان يسف إلى ذلك ، وأخوه المأمون يعمد إلى القواد والعظماء والعلماء الأعلام يستشيرهم ويأتمنهم . وغلط المأمون لأول أمره ثلاث غلطات إدارية : منها أنه لم يأت إلى عاصمة ملكه عقيب مقتل أخيه فقضى في الطريق من مرو إلى بغداد سنتين بعد أن أقام بمرو تسع سنين ، وكان عليه أن يبادر لجمع القلوب وكسر شوكة المتلاعبين من القواد وبايع المأمون بولاية عهده إلى علي بن موسى الرضا وهو في خراسان فأخرج الخلافة من آل العباس ، حتى أجمعوا على خلافه وبايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدي في بغداد وخلعوا طاعته . ومنها أنه سمع لوشاية وزيره الفضل بن سهل في هرثة بن

أعين الذي كان بحسن تدبيره العامل الأول في القضاء على جيوش أخيه الأمين وإيصال الخلافة للمأمون . وكانت أنت هرثمة كتب للمأمون أن يلي الشام والحجاز فأبى وقصد الى المأمون في خراسان ^(١) « إدلالا منه عليه لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الأخبار والآيداع حتى يرده الى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ، ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه ، فعلم الفضل ما يريد فقال للمأمون : إن هرثمة قد أنفل عليك البلاد والعباد وظاهر عليك عدوك . » ولما أدخل هرثمة على المأمون وقد اشرب قلبه ما اشرب من ناحيته ذكر له ما بلغه عنه مما افتراه الفضل ، وذهب هرثمة يتكلم ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرّف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فوجىء على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ثم قتل .

وكاد المأمون يغلط غلطة رابعة بتخليه عن طاهر بن الحسين : « الذي أبلى ^(٢) في طاعته ما أبلى وافتتح ما افتتح وقاد اليه الخلافة مزومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية من الأرض بالركة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده » وتنوسى حتى لا يستعان به في شيء في الحروب واستعين بمن هو دونه أضعافاً . لكن عقل المأمون تدارك هذه الغلطات ، وما إن جاء بغداد حتى قبض على قياد الملك قمضة الرجل الحازم ، وظهرت مواهبه ونبوعه في السياسة والادارة في زمن غلبت الفتنة على قلوب الناس فاستعذبوها ، ولا مال له يرضيهم به . وقال يتخوفها نجأيهم و يموت المال فارغة : إن الناس في هذه المدينة على طبقات ثلاث : ظالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا واحسانا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلا بنا ، ومن كان لا طالما ولا مظلوما ، فبيته يسعه ، وما كان إلا كما قال .

وقيل إن المأمون بكى لما رأى طاهر بن الحسين . فلما سئل عن سبب بكائه قال إني ذكرت محمداً أخى « الأمين » وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة ، فاسترحت إلى الافاضة ولن يفوت طاهراً منى ما يكره ، فبلغ ذلك طاهراً فركب إلى احمد بن أبي خالد فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع ، فغيبني عن عينه . فسمى له بتولية خراسان ، وكان قبل ولايته نذبه الحسن ابن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شيث فقال : حاربت خليفة وسقت الخلافة إلى خليفة وأمر بمثل هذا ، وإنما يجب أن توجه لهذا قائد من قوادى . ثم وسد المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو ابن طاهر بن الحسين الرقة وحرب نصر بن شيث وولاه البلاد التي في طريقه ليكون حكمه نافذاً مهيباً مهياً له أسباب الظفر من كل وجه . وذلك لثلاث تتعارض السلطات ، ويجمع القائد في العادة بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية ، وهذا من دقيق سياسة العباسيين . ولما وسدت إلى عبد الله بن طاهر قيادة الجيش لقتال الخارجى ابن شيث كتب إليه أبوه طاهر بن الحسين كتاباً تنازعه^(١) الناس وكتبوه وندارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه فقال : ما أتى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

ومما ورد في هذا الكتاب في الإدارة : ولا تهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبذاء والظنون السيئة بهم مأثم ، واجمل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يعنك^(٢) ذلك على اصطناعهم ورياضتهم . . . ولا يمنعك حسن

(١) تاريخ الطبرى (٢) رواية ابن الأثير بنيك ذلك عن اصطناعهم

الظن بأصحابك والرافة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، ولتكن المباشرة لأُمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفریطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات ، يسلم لك دينك ، وتستقيم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فف به ، وإذا وعدت الخير فأأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها . واغض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله ، وأقص أهل النجاسة ، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها^(١) تقريب الكذوب ، والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنجاسة خاتمها ، لأن النجاسة لا يسلم صاحبها وقائلها ، ولا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر . . . واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها رأيك ، واظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، واملأ نفسك عند الغضب ، وآثر الوفاء والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله . . . ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تذخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتفقد لأُمورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للمهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير

(١) رواية الأمير : فساد أمورك في عاجلها وآجلها .

المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعبتك من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعبتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وأطيب نفساً لكل ما أردت ..

وعاد فوضع له قواعد في حكمة الأخلاق لا تصلح بغيرها الولاية فقال :
« ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تداهين عدواً ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تبتغين عادياً ، ولا تحمدن مرئياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تجبين باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا ترهقن هجرًا ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تأتين بذخاً ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تفرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عتاباً ، ولا تغمض عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا .

قال : وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك أهل الذمة والنحل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعبتك من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعبتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم . . . وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ، يذهب الله بذلك فاقهم ، فيقوى بك أمرهم ، وتزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانتراحاً . . .

ثم ذكر له القضاء وإقامة العدل فيه « لتصلح الرعيصة ، وتأمين السبل ،
وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة .
الى أن قال - بعد أن عرفه ما يفعل لحقن الدماء واعطاء الحقوق - : وانظر هذا الخراج
الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ،
ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاصيهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين
أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه
ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كائب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ، ولا
تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم
على مر الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم انك جعلت
بولايك خازناً وحافظاً وراعياً . وإنما سمي أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم
وقيمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوم ومقـدـرتهم ، وتنفق في قوام أمرهم
وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير
والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك
من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك . ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا
يصرفنك عنه صارف ، فأنك متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة
النعمة من ربك ، وحسن الأحداث في عملك ، وأحرزت به المحبة من رعيتك ،
وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العبارة بناحياتك ، وظهر
الحصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على
ارتباط جندك ، وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود
السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل
وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدّم عليه شيئاً تحمد ، مغبة أمرك
إن شاء الله .

« واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع ، فأمضه وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته ... »

« وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرة بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فإذا أمضيت لـكل يوم عمله ، أرحت نفسك ، وبذلك أحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوى الشرف^(١) منهم ممن تستيقن صفاء طوبتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤونتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحفى مسألة ، وוכל بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ... »

« وأجر للأضرأ^(٢) من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً وتؤويهم ، وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى

(١) هذه رواية الطبري وفي رواية ابن الساعي ذوى السن (٢) رواية ابن الساعي « الاضرأ بدل الاضرأ »

سرف في بيت المال . واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم ، لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم ، طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما تبرم للتصفح لأمر الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ، ما يناله به مؤونة ومشقة .

« وأكثر الاذن للناس عليك وأبرز للناس وجهك ، وسكن لهم حواسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بمجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس ، والتامس الصنعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة . . . » « واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليتها . وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك اليك في سر ، واعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك . »

« وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل منهم في كل يوم وقتاً يدخل به عليك بكتبه ومؤامراته ، وما عنده من حوائج عمالك وأمور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى الثبوت فيه والمسألة عنه . ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك . . . »

أرأيتم هذا الكلام الآخذ بجماع الفوائد الذي كتب به طاهر بن الحسين إلى ابنه قبل خمسين ومائة وألف سنة في هذا الموضوع الجليل الذي فيه قوام الممالك

والشعوب ؟ أتظنون أن هذه الأفكار يصدر اليوم أحسن منها عن أكبر عالم إدارى عارف بطبائع الناس وما يصلحهم ، والممالك وما ينبغي لها ؟ وعرفنا من هذا الكتاب مكانة طاهر بن الحسين من قيام الدولة والدفاع عن حوزة الخلافة ، وأن المأمون الذى يكون من جملة قواده ورجال دولته هذا العظيم لا بد أن يكون فى عمله جداً عظيماً . وقد تقدم معنا أن عبد الله بن طاهر نُدب للحرب نصر بن شيبث ، فلما استأمن هذا وصفت البلاد ، جاء الشام فعمل أحسن الأعمال لراحة أهلها واستقرارها بالداً ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواquil ^(١) ، وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ، ونظر فى مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، ثم قصد الى مصر فضرب على أيدي الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكماً . وكان نحو ^(٢) الحجة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا من الأندلس بعد وقعة الرض فى سنة ٢٠٢ فأتوها الى الاسكندرية فملكوها مديدة ، فلما ورد عبد الله بن طاهر على مصر صالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول حيث شاءوا من جزائر البحر فاختراروا جزيرة اقريطش من البحر الرومى .

وكان من تربية طاهر بن الحسين أن جاء ابنه كما قال له احمد بن يوسف الكاتب موقفاً فى الشدة واللين فى مواضعهما ، ولا يعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضعفته عفوهُ . قال : ولقل ما رأينا ابن شرف لم يُلْقَ بيده متكلاً على ما قدمته له أبوته . قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل الينا (فى مصر) ففى حدث من المشرق ، يعنى ابن طاهر ، والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس فى بلاء ، فأصالح الدنيا وأمن البرىء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة . ولقد قال المأمون لبعض

(١) الزواquil اللصوص (٢) الحلة السيرا لابن الأبار

جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعظم عفة ؟ فجالوا بما فتح الله عليهم ، وبعضهم مدحه وقرظه . فقال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهي كالعروس الكاملة ، فيها خراجها وبها أموالها حمة ، ثم خرج عنها فلو شاء الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكتب إلى^١ إنه عرضت عليه أموال لو عرضت عليّ أو بعضها لشرهت إليها نفسي ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس . فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الاسلام ، فالحمد لله الذي جعله غرس يدي وخريج نعمتي .

هكذا كان عدل العمال وشرف أنفسهم، وهكذا كان علمهم وبعد نظرهم في عصر المأمون، فلا يستغرب بعد ذلك ما ذكر من قصة^(١) تلك المرأة القبطية التي نادى المأمون لما مر بقريتها طاء النمل^(٢) من أرض مصر وسألته أن يقبل قراها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الاعداء ، وبكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بحيشه ورحاله وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه . وفي الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، في كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب وربما عجز بيت مالنا عن مثل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيب عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا — وأشارت إلى الذهب — من هذا — وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض — ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شيء .

(١) خطط المقرئ (٢) طاء النمل يقال لها اليوم طنادل (نسم الطاء وتشديد النون) وهي مركز احما من مديرية النصورة

كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعفاها من بعض خراج أرضها .
وفي الحق إنه لم يعرف عصر كعصر المأمون وعصر أبيه وأخيه الأمين في
استفاضة الأموال في كل طبقة من طبقات الأمة . فقد أنفق الحسن بن سهل على
عرس ابنته بوران على المأمون أربعة آلاف ألف دينار ، وماتت الخيزران أم الهادي
والرشيد (١٧٣) وكانت غلتها ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ومات محمد بن
سليمان وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف
درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة
ألف درهم . وأنفق جعفر بن يحيى على داره التي ابتدأها في دار السلام نحواً من
عشرين ألف ألف درهم . وغنى إبراهيم بن المهدي محمداً الأمين صوتاً فأعطاه
ثلاثمائة ألف درهم . فقال إبراهيم : يا سيدي قد أمرت لي إلى هذه الغاية بعشرين
ألف ألف درهم فقال : وهل هي إلا خراج بعض الكور !

ووقع للمأمون غير مرة أن كان يخف إلى الأقطار التي تنشب فيها فتنة جديدة
لا يعتمد على رجاله على كثرة الصالحين منهم للعمل . ولما انتقضت أسفل الأرض
كلها بعصر عربها وقبظها ، وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء
سيرة العمال فيهم ، هبط المأمون مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ،
وسخط على عامله عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض وقال :
لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطبقون
وكتتموني الخبر ، حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد . وقال : ما فتق علي قط
فتق في مملكتي إلا وجدت سببه جور المال . وقال لمن رفع إليه خبراً في عامل :
إني امرؤ أداري عمالي مداراة الخائف ، والله ما أجد إلى أن أحملهم على المحجة
البيضاء سبيلاً ، فأعمل على حسب ذلك ولن لهم تسلم منهم .

وخص المأمون بالإغضاء عن المساويء ، والتغابي عن التافهات ، وحمل الناس

على محل الخير، وجهد أن يسوق اليهم كل خير، وهذا مع كثرة عنايته بأخذ أخبار عماله ورعيته، وقيل انه كان للمأمون ألف عجز وسبعائة يتفقد بها أحوال الناس ومن يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتبه كلها، وكان يدور ليلاً ونهاراً مستتراً، ومع كل هذا كان المأمون أبداً إلى جانب المساحة والنفوس، وتتجافى نفسه العظيمة عن كل ما تشتم منه راحة الطمع والاسفاف إلى أموال العمال، وكادت المصادرات والتكبيات تبطل في أيامه ولا ينسكب إلا من حاول نقض بنيان الدولة. ولقد رفع إليه أن عمرو بن مسعدة أحد وزراء دولته خلف ثمانين ألف ألف درهم، أو نحو ثمانية ملايين دينار، فوقع على الرقعة: « هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه. » وكأنه استغظم القتل الذي يصيب كل عدو للدولة فبسط جناح الرحمة وقلل من إهلاك النفوس ما أمكن. وأقام نفسه مقام رحل يعرف الطباع البشرية وينصف خصومه وأعداءه ويحسن اليهم ولا يسيء، كتب صاحب بريد همدان^(١) إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقع المأمون: « إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبله وأحازه، فأنف الساعي عنك، فلو كان في سعائته صادقاً لقد كان في صدقه لثيماً، اذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه. »

وقال المأمون لولده في معنى الوشاة: يا بني نزهوا أقدارك وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعائهم، فكل جان يده في فيه، وليس يشئ إليكم إلا أحد الرجلين: ثقة وطنين. أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يسيئ بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه، ويكذب ظنه، ويرد ناطله، وما سعى رجل برجل

(١) المحاسن والمساوي للبيهقي

الىّ قط إلا انحط^(١) من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً ، فلا تعطوا الوشاة أمانهم فيمن يشون بهم . ولئن لم يترك المأمون مجالاً للوشاة يجرى بون بيوت من يشون بهم ، ويزيلون نعمتهم ، أو يوردونهم موارد الهلكة ، فما كان يخفى عليه خبر من الأخبار الخاصة والعامة في القاصية والذانية ، حتى إنه لما ضاق صدره من تشدد بعض العلماء في حوار خلق القرآن ، كتب إلى عامله بمائتهم رجلاً رجلاً ، وقال إنه أعلم بما في منازلهم منهم . وخبر في هذه الرسالة عن عيب واحد واحد من الفقهاء وأصحاب الحديث ، وعن حالتهم وأمورهم التي خفيت أو أكثرها عن القريب والبعيد . ولقد كان من أهم قوانين إدارته التوسعة على عماله حتى لا يسرقوا الرعيّة والسلطان ويضيعوا حقوقهم ؛ رفع منزلة الفضل بن سهل وعقد له على الشرق طولا وعرضاً وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم . وما كان المأمون بالخليفة الذي يتخلى عن خاصة عماله بأذى سبب ، بل يفض الطرف عن مساوئهم ويتركهم في برزخ بين الرغبة والرهبة ، ولذلك استراح واستراح الناس معه ، وعلى قدر ما كان يراعى الخاصة يراعى العامة ، وقد قال في وصيته للخليفة بعده : ولا تغفل أمر الرعية والعوام فإن الملك بهم وبتعهدك لهم . الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقوىائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقرّبهم وثان بهم .

وكان المأمون يحرص كل الحرص على الانتفاع برجاله ، ويطلق لهم حريتهم في العمل ، ومن كان يستمع لمشورتهم أحمد بن أبي دواد ، وهذا كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . ولما أسند^(٢) المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم قال فيها : وأبو عبد الله أحمد بن أبي دواد لا يفارقك

(١) أخلاق الملوك للحافظ (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان

الشركة في المشورة في كل أمر فانه موضع ذلك ، ولا تتخذن من بعدى وزيراً .
ومن جملة ما أوصى به المأمون أخاه المعتصم في مرضه : خذ بسيرة أخيك في القرآن
والاسلام ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المرید لله ، الخائف من عقابه
وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلكته ، وكأن قد نزل بك الموت ، ومن ذلك عرفنا أن
سياسة المأمون ملكه كانت علماً وعملاً ، وهكذا يريد أن يكون عماله . وعظه
رجل فأصغى اليه منصتاً فلما فرغ قال : قد سمعت موعظتك فأسأل الله أن ينفعنا
بها وربما عملنا ، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال ، فقد
كثر القائلون وقل الفاعلون .

وكان في المأمون شيء من الجاذبية الفطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على
حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمرجة أمته فيشغلها في الفيد ، ولا لغو ولا لهو في
حياته ، فكان بادارته مثال الجد في الخوالب من بني العباس ، يفكر في أمر رعيته
أكثر من تفكيره في أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق في التقدم إلى عماله
في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل محله ، وأن يتقدم إلى عماله
في ذلك أشد التقدم ، وأن يكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك ، وكتب بهذا
إلى جميع عماله في أجناد الشام . واستجلب المأمون لمساحة أرض الشام مساح العراق
والأهواز والرى . وكان يعدل الخراج إذا شكاه منه أهله . وكان العلاء بن أيوب لما
ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه من يحضره من أهل ذلك
العمل ، ويقول أتم عيوني عليه فاستوفوه منه ، ومن تظلم إلى منه فعلى أنصافه ونفقتة
جائئاً وراجعاً . ويأمر العمال أن يقرءوا عهده على أهل عمله في كل جمعة ويقول لهم :
هل استوفيتم ؟

أصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب إلى الحرمين
إلى المأمون يذكر له الحال ، فوجه إليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب إلى والى :

«أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فبكمهم بقلب رجحته ،
واتجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف إليهم ، بما يخلفه عليهم حاجلا وأجلا ،
إن أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته . » قالوا : فصار كتابه هذا آنس لأهل
مشكة من الأموال التي أنفدها . وكان له في كل بلد حوادث من الاحسان قلما
يتسامى إليها أحد من الخلفاء . ولقد ذكر المؤرخون أن المأمون لما كان في دمشق
أضاق بإضافة شديدة ، ثم وافاه المال ثلاثون الف الف درهم . فقال ليحيى بن
اكرم : أخرج بنا لننظر إلى هذا المال . فخرج وخرج الناس ، وكان قد زين
الحل وزخرف ، فنظر المأمون منه إلى شيء حسن كثير ، فاستعظم الناس ذلك
واستبشروا به . فقال المأمون : ان انصرفنا الى منازلنا بهذا المال وانصرف الناس
خائبين لؤم . فأمر كتابه أن يوقع لهذا بألف ألف ولذلك بمثلها ولآخر بأكثر منها
حتى فرق أربعة وعشرين الف الف درهم (ثلاث مرات) ورجله في الركاب ، ثم
حول الباقي على عرض الجيش برسم مصالح الجند .

وذكروا أن المأمون عقد لأخيه أبي اسحق على ثغر المغرب ، ولابنه العباس على
الشام والجزيرة ، ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابل . وفرق فيهم ما لم يفرق
مثله أحد مذ كانت الدنيا : أمر لكل واحد منهم بخمسمائة ألف دينار . وما كان
المأمون يضمن بمال إذا كان فيه صلاح الدولة والرعية . وخمسمائة ألف دينار يأخذها
العامل ينفقها في أتباعه ورجاله ومروءته . وكانت نفقة المأمون كل يوم ستة آلاف
دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف . كتب عمرو بن
مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند ونصه : « كتابي إلى أمير المؤمنين
ومن قبلى من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة
جند تأخرت أرزاقهم ، واختلت أحوالهم » . فقال المأمون والله لا قضين حق هذا
الكلام . وأمر باعطائهم ثمانية أشهر . وكتب بعض ولادة الأجناد إلى المأمون :

إن الخُجُندِ شُعبُوا ونهبُوا . فكُتِبَ إليهِ ؛ لو عدلتُ لم يشُعبُوا ، ولو ذُفِيتُ لم ينهبُوا .
وعزله عنهم ، وأدر عليهم أرزاقهم .

ويتعذر تعداد أفضال المأمون على الأفراد ، وحرصه على اختيار رجاله وعنايته
بآرائهم وتجاربهم ، وغرامه بالعرف والاحسان . قال أحمد بن أبي خالد وزير المأمون
لثامة بن أشرس : كل واحد في هذه الدار ، أى في دار الخليفة ، له معنى غيرك ، فإنه
لا معنى لك في دار أمير المؤمنين . فقال له المأمون : إن له معنى في الدار ، والحاجة
إليه بينة . قال : وما الذي يصلح له ؟ . قال : أشاوره في مثلك هل تصلح لمن معك
أو لا تصلح . وثامة هو من الجماعة الذين كانوا يغشون دار الخلافة^(١) ، وهى دار العامة ،
ومنهم محمد بن الجهم والقاسم بن سيار ، وكان هؤلاء الرجال أشبه بالمستشارين بل
أشبه بدعاة الدولة ، وعنوان الخلافة . هذا إلى ما هناك من شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء
يختلفون في الاحايين إلى الخليفة فيشاركونهم في حديثهم ، وينافسونهم في صناعتهم ،
ويفضل عليهم من هباته ، فيخرجون وألسنتهم تنطق بحمده ، وتدعو بدوام ملكه ،
ويذكرون للعامة والخاصة ما هو عليه من بعد النظر في سياسة الملك . قال الجاحظ :
كان إبراهيم بن السندی مولى أمير المؤمنين عالماً بالدولة شديد الحب لآبناء الدعوة ،
وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ،
وكان فخم المعاني فخم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف
سيف وسمان طرير لكان ذلك قولاً ومذهباً .

أرانا قد خرجنا من وصف إدارة المأمون إلى وصف سيرته ، ونحن إلى ذلك
مسوقون على الرغم منا ، وأتى لنا أن نصدر حكماً صحيحاً على حكومة مطلقة قبل أن

(١) ساقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ

تعرّف. أخلاقُ رأسها خليفة أو كان ملكاً أو أميراً ، والرأس هو الكل في مثل هذه الدول ، إذا صلح صلح الجسد كله .

الدارة على عهد المعتصم وأمهرو

إذا ذكر المعتصم فأول ما يتبادر الى ذهن قارئ التاريخ الاسلامي أنه الخليفة الذي أشرك الترك في الخلافة العباسية وأبعد العرب عنها ، فنقض أساس دولته بيده . ولئن كان المنصور بدأ بشراء المالك واستخدامهم وتابعه من خلفوه على ذلك ، فإن العباسيين ما دخلوا فيما دخل فيه المعتصم من وضعه من العرب^(١) وإخراجهم من الديوان ، وإسقاط أسمائهم ، ومنعهم العطاء من العاصمة والولايات . فصار جند العباسيين من العجم والموالي .

اجتمع للمعتصم من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية ، وألبسهم بالزى على سائر جنده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس ومضر وسامم المغاربة . وأعد رجال خراسان من الفراغة والأشروسنية وغيرهم من الترك . فأصبح جند الخلافة^(٢) على عهده خمسة أقسام : خراساني وتركى ومولى وعربى وبنوى^(٣) . وكثر الهرح والمرج في فيالقهم ببغداد حتى اضطر أن ينشأ لهم مدينة سامرة (سرّ من رأى) تخفيفاً عن أهل دار السلام ، لأنهم كثروا على الناس وضائق باعتماداتهم الصدور .

فمن ثم كانت جيوش المعتصم كثيرة مستعدة للقتال عند أقل إشارة ، وكان السعد خليفة في غزواته مع الروم . قيل إنه لما فتح^(٤) عمورية كانت عدة عساكره خمسمائة ألف فارس ، وعلى مقدمته خمسمائة من الخيول البلق ، وكانت

(١) حطط المقرئ (٢) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للعاجط (٣) الاسام قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة اليهم أساوى وبنوى محرّكة (٤) التيسير والاعتبار للاسدی (مخطوط)

لحاميات في الثغور أبدأً على أتم نظام ، وارتفاع الثغور الشامية ^(١) نحو المئة ألف دينار تنفق ^(٢) في مصالحها من المراقب والحرس والفواشير والركضة ^(٣) والمواكلين بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك من الأمور والأحوال ، وما يحتاج إلى شحنتها من الجنود والصعاليك ^(٤) . وتنفق الدولة على مغازى الصوائف والشواتى في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي ألف دينار ، وعلى المبالغة ثلاثمائة ألف دينار . بيد أن المعتصم لم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة على الحرب ، وربما كان للمعتصم بعض العذر في ثقته بالأتراك في جيشه ، وهم من القديم عرفوا بالحرب وأشتهروا بالطاعة لقوادهم . ولكن هذه الغلطة الإدارية كان وبالها بصد على الدولة لأن الأتراك تسلموا إلى الوزارات والقيادات ، واستأثروا بالولايات والعمالات ، فأصبح لهم بعد السلطان الحقيقي على البلاد ، وللخلفاء صبغة غير عملية من الحكم .

أراد المعتصم أن يتشبهه بأخيه المأمون فسار على أحكامه ونظامه ، ومن أين له أن يشبهه بعلمه وحلمه . فقد ذكر واصفوه بأنه كان قليل البضاعة من الأدب ، وإذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل . وقالوا إنه كان يحب العبارة ويقول إن فيها أموراً محمودة من عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه . وأعطى أهل الشاش التي ألف درهم لكرى نهر لهم اندفن في صدر الاسلام .

لم ينتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً في الإدارة لم يعرفه المأمون

(١) الثغور الشامية هي طرسوس وأذنة والمصيصة والاسكندرونة وأولاس وعين زربة والكنيسة السوداء . والمهارونية وبساس . ومن ثغور الجزيرة مرعش وأنطاكية وبفراس (٢) الخراج لقدامة (٣) الفواشير الكشافة . الركضة البريديون (٤) الصعاليك الجند غير المنظم

والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه المنصور للدولة . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث تلك الروعة التى كانت لها فى عهد الخلفاء الأول . وقلَّ بعد المأمون الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم ، فأصبحت الخلافة بعد عظمائها بفتور ، وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق . ومن أهم الدواعى الى هذا الانحطاط فساد الادارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ ذلك من شراة نفوس العمال والوزراء واضاعة الحقوق . ومن يصادر أو يموت عن عشرات أو مئات الألوف من الدنانير من هذه الطبقة كيف يصح لك أن تحكم عليه بالبراءة من مال السحت والرشا والسرقا . مساوىء ما فنشت فى أمة إضاع حق سلطانها وحق رعيته .

وكانت أهم عقوبة تقع على الظالم من العمال مصادرة الخليفة أو وزيره أو عامله الأكبر ، واصبح العمال فى الدولة العباسية صورة عجيبة من استنزاف الأموال ، وهم موقنون بان مصيرهم بما جمعوه الى المصادرة والقتل . وقل فيهم من كان يكتفى بما قرره له الخليفة أو العامل الأعظم من الجرايات والمشاهرات ، وقد تكون على حد الكفاية وأكثر من الكفاية بالنسبة لتلك الأعصر ، وما حدث فيها من وفرة الثروة وعوائد الترف والسرف . وللوزراء ومن يلونهم طرق البليسية فى السلب . والأرحح ان أهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة أو بيت مالها ، ومن الهدايا التى يضطرون صغار عمالهم الى تقديمها فى كل فرصة ، ومن رشا يتناولونها ممن يحاولون ان يستخدموا فى أعمال الدولة ، الى غير ذلك من وجوه انتهاب الأموال وإعنات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتصلى وتتعبد وتتصدق وتغار على الاسلام والدولة ، ثم تجوز الاحتيال لأخذ الأموال لأف الأبهة تقضى التوسع فى الافاق !

قال عامل مصر لأحد من زاره من وزراء العباسيين فى الفسطاط ، فرأى جسر

يحتسب العمال عنه على السلطان ستين ألف دينار في كل سنة ، وهو لا يكلف عشرة دنانير : ان جاريه ثلاثة آلاف في الشهر ولا يمكنه وهو عامل مصر أن يكون بغير كتاب ولا عمل ولا كراع ولا جمال ولا اعطاء ولا افضال ، وله حرم وأولاد وأقارب وأهل يحتاج لهم الى مؤونة ، ولا يخلو أن يرد عليه زوار بكتب من الرؤساء فتقضى الروءة أن يبرهم ويصلهم ، الى غير ذلك مما يصانع به ، ومنها هدايا سنوية الى الخليفة والسيدة وأنجاله والقهرمانه وكتائبهم وأسبابهم . وبهذا رأينا أن العامل كان مضطراً بحسب مصطلح ذلك الزمان الى أن يسد العجز في موازنته الخاصة من طرق غير مشروعة ، وقلّ العف الجيد الطعنة . وكلما تقدم الزمن وزادت الخلافة العباسية عتقاً بليت الأخلاق في الناس وتبعه تقلقل الادارة ، لفسولة رأى القائميين بالدولة وتشعب أغراضهم .

ولقد كان الخلفاء على الأكثر يتخيرون للولايات والوزارات أكتب الناس وأعلمهم ، وللقضاء أقضاهم وأفتاهم . وحظوة الرجل عند قومه قد تكون من بواعث توسيد كبار الأعمال اليه خصوصاً الوزارات والولايات والقيادات . وأنى زمن بعد المعتصم والوزير أعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم ، وأصبح أنصار الدولة والغيراء عليها يتأففون ممن لا يحسنون العربية ، وإن كان منطويّاً على صفات أخرى صالحة في تدبير الملك ؛ وذلك لسكرة من دخل في الأعمال من غير العرب . وكان معظم العمال يحاولون أن يجرؤا الرعية على المعاملات القديمة ويحملوهم على الرسوم السليمة . ولكن تطلب أنفس الولاة والعمال الى العبث بحقوق الناس ، ليجنوا من ذلك ما تنلمظ له شفاهم من المنام ، كان الباعث على استئراء الفساد في معظم طبقات المجتمع . ثم أصبح بعض العطاء ^(١) ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حياتهم كانت التنقيل ، ولأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان في الغالب الى المصادرة والاعتصاب .

ولقد عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الأيام المصدر الرئيسى لتحصيل المال ؛ فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . حتى أنشؤا المصادرة ديوانا خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة ؛ فكانت المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة . غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه . ثروة ضخمة لو فكر الفضل أن يخضع طاعة الخليفة وينشئ بها ملكاً له لما أعجزه ذلك . وغضب الواثق على كتاب الدواوين وسجنهم وأخذ منهم ألف دينار ، وفيهم بعض الوزراء ومن كانوا فى منزلتهم . وقل أن كان الوزير ينجو من نكبة إذا طالت أيامه ، وأيقن الخليفة أنه اغتنى وعبث بأموال الدولة ، أو حفزته الحاجة إلى المال فتفقده فى خزائنه فلم يجده . ولم يعهد لوزير أن وزر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين إلا محمد بن عبد الملك الزيات ، وانتهى أمره بحرقه فى التنور ومصادرة أمواله . وكان من العلم والأدب فى الدولة العليا . وكان سلفه فى وزارة المعتصم أحمد بن عامر الذى وصفه المعتصم ووصف نفسه بقوله : « خليفة أمى ووزير عامى ^(١) »

قال الوزير ابن الفرات : تأملت ما صار إلى السلطان من مالى فوحدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الحوهرى فكان مثل ذلك . فكانه لم يخسر شيئاً لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة ، وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن فى وسعه أدائه كله معجلاً أجלוه بالباقي وساعده على تحصيله وجمعه . وتعددت أسباب المصادرة وجهاتها حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وكانت وزارة ابن الفرات ثلاث سنين وثمانية أشهر وأثنى عشر يوماً ^(٢) - وولى الوزارة ثلاث مرات - وطولب بأمواله وذخائره

(١) وفيات الأعيان لاس خلكان (٢) صلة تاريخ الطبرى لعريب

فاجتمع منها مع ودائع كانت له سبعة آلاف ألف دينار ، فيما حكى عن الصولى ، وكان مشاهداً ومشرفاً على أخبارهم . قال : وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضباع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات . رد الواثق على بعض بنى أمية أموالهم ، وأكرم العلويين وأحسن اليهم ، وما أحسن أحد إلى آل أبي طالب من خلفاء بنى العباس ما أحسن اليهم الواثق . ما مات وفيهم فقير^(١) وكان في حلمه وحسن خلقه يشبه عمه المأمون ؛ يحب العدل ويعطف على أهل بيته ويتفقد رعيته . حشم^(٢) الأمراء عن الظلم ، وكان يجلس لحساب الدواوين بنفسه ، وترك جباية أعشار سفن البحر ، وكان مالا عظيماً . وقيل انه سد باب اللهو والغناء ، أما هو فكان يسمع المغنيات ولا يتبذل ولا يسرف . واشتد على الناس كأبيه وعمره في مسألة خلق القرآن حتى قيل انه أمر في سنة ٢٣١ ، وهى سنة الفداء بين المسلمين والروم ، أن يمتحن^(٣) أسارى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة فودى به وأعطى ديناراً . ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم . وعقد الواثق لبنيه الثلاثة ، وقسم الدنيا بينهم ، وكتب بذلك كتاباً كما فعل جده الرشيد مع أولاده ، فأعطى ابنه الأكبر المنتصر من عريش مصر إلى افريقية المغرب كله إلى حيث بلغ سلطانه ، وأضاف إليه جند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزيرة وديار بكر وربيعة والموصل والفرات وهيت وعانة والخابور ودجلة والحرمين واليمى واليمامة وحضر موت والبحرين والسند وكرمان وكور الاهواز وماسبذان ومهرجان وشهرزور ووقم وقاشان وقزوين والجبال . وأعطى ابنه المعتز خراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله . وأعطى ابنه المؤيد إرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين . وكان لولى العهد في هذه الممالك الصلاة والمعاون ، أى الشحنة والشرطة ، والقضاء والمظالم والخراج والضباع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب (٢) دول الاسلام للدهي (٣) تاريخ الطبرى

حقوق أعمالها وما في عمل كل واحد منها من البريد والطراز وخزن بيوت الأموال ودور الضرب . يستخلفون على القطر الكبير حرباً وخراجاً ، ويفوضون الأمور كلها للعامل يأذن اليه في الحل والعقد بغير استثمار ويخلمون عليه سواداً . أى ان القطر الواحد بل المصر الواحد يحكم برأى عامله وجماعة ممن يختارهم لمشورته ومعاونته ، فينظر في الأمور بحسب فهمه وما يوحى اليه المحيط والعادة والعرف ، ويطبق الأحكام الشرعية على الكبير والصغير والملى والذمى ، وينصب العامل الأكبر في الولاية العمال من ذوى الرأى والتدبير والخبرة بالعلم والعلم بالسياسة ، ويشاور الفقهاء وأرباب التجارب ، ويتفق من المال ما تصلح به الولاية وما يوسع به على القراء والفقراء وذوى الحاجات ، وما تقتضيه من عطاء الجند وتقوية الثغور وشحن المصالح ثم يبعث الباقي من الأموال الى الخليفة . وللخليفة الخطبة والسكة ، فاذا كان العامل يحسن عمله ، ويعرف مدى التبعة الملقاة عليه ، يستسيغ الخراج ان كان ذا قوة أو أنس من جانب الحضرة ضعفاً . ولا يرجع في العادة الى استشارة العاصمة الا في عويص المسائل التى يمكن تأجيلها ، وتكون من حقوق الخليفة داخلية في أمهات المسائل الكبرى في الدولة . وقد يجتهد ويرتكب غلطا فتصرفه العاصمة ان أحسنت به أو توجهه في العقوبة ، كما فعل المنصور لما بلغه ضرب عامله على المدينة عالمها مالك بن أنس فشق ذلك على الخليفة وأهان عامله وصرفه . ولكن كانت كتف مالك قد زالت عن مكانها بالضرب المبرح . فالعامل في الحقيقة هو الملك الفعلى ولا يسع العاصمة الا أن تقره على ما يقرر ويدبر في أكثر الحالات . وقد ظهرت مضار هذه الطريقة عند ما كانت العاصمة تعجز عن ضبط كل شىء من أمور الولايات لضعف الخلافة ووناء القوائم على سدتها . وإذا كان هناك قضاة وولاة وناظرون ومفتشون وكتاب وحساب فان التنفيذ يختلف قوة وضعفاً بحسب كفاية العامل وسلطان الخليفة والوزير .

حاء المتوكل وضغط أمراء الترك وقوادهم يزيد شدة على الخلفاء فلخلع على

عليه الله بن يحيى وأمر أن لا يعرض أحد من أصحاب الدواوين على الخليفة شيئاً، وأن يدفعوا أعمالهم إلى وزيره ليعرضها، وأجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم، لما كان في نفسه من الأثرak واستبدادهم بالأمر. فكان عهده عهد جذب ودفع بين أصحاب الخلافة ومن رفعهم المعتصم على رقاب الناس من الترك، وعلق المتوكل يداوى الأمراض البادية في جسم الدولة بانفاق المال الذي جمعه المأمون والمعتصم والوائق على نحو ما فعل الأمين؛ ففرق ما جمعه السفاح والنصور والمهدى والرشد من الأموال. فقال الناس إن أيام المتوكل كانت في حسناتها ونضارتها ورفاهية العيش بها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء. نعم كان هذا الخليفة منفاقاً لا يحسن تدبير خرجته، وله مع هذا عناية خاصة بديوان زمام النفقات. أنفق ما أنفق مما ادخره أجداده في بيوت أمواله، فكان هذا منه تدبيراً مؤقتاً غير ناجح، وما استطاع أن يداوى ما تجلى من تسلط الأثرak على الدولة في عامة أقطارها وأعمالها.

رأى المتوكل شدة ضغط الترك على الخلافة في دار السلام فأحب الانتقال إلى دمشق ليجعلها دار ملكه وتقل دواوين الدولة إليها. ولما أمن غائلة من توجس منهم خيفة عاد إلى العراق وادعى أنه استوبأ مدينة دمشق. وكانت له أفكار شاذة، منها أنه كان يفيض على بن أبي طالب وأهل بيته فعفى قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه. ولا تأويل إلى هذا العبث إلا خوفه الشيعة وأن يتخذوا من زيارة الحسين وسيلة إلى دعاية سياسية تزعزع أركان الملك العباسي. واشتد المتوكل على أهل الذمة وأخذهم بلبس البسة تحالف لباس المسلمين على رؤوسهم وأوساطهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة، تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين. وأمر أن يقتصروا في مراكبهم

على تركوب البغال والحير دون الخيل والبراذين الى غير ذلك ، وأمر باجلاء
النصارى عن حمص لأنهم كانوا يعينون الثوار من اليمانيين ، والثورة لا تكاد تطفىء
كل حين من حمص حتى سميت الكوفة الصغرى ؛ لكثرة قيام أهلها على العمال ،
كما خصت تونس بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة .

ومع كل ما بذل المتوكل قوى الأتراك عليه وقتلوه ، قيل بالانفاق مع ابنه الذى
خلفه ، وأخذ المتغلبة من الترك يستضعفون الخلفاء فأصبح « الخليفة فى يدهم كالأسير
إن شاؤا أبقوه وإن شاؤا خلعه وإن شاؤا قتلوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين »
وحاء المنتصر يقاوم العلويين كأبيه المتوكل ويكتب الى عامل مصر (٢٤٧) أن لا
يقبل علويًا ضيعة ، ولا يركب فرسًا ، ولا يسافر من القسطنطين الى طرف من أطرافها ،
وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين العلوى وبين أحد
خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة . ذلك لأن العلويين ما ناموا ساعة
عن المطالبة بالملك ، فمثل هذا الأمر يضيق عليهم دائرة حركتهم ، وإن كان فى بعض
ما يرمى اليه غير عادل .

ادارة المعتمر والمهتدى والمقهر

تولى المعتمر الخلافة فأمر باحضار جماعة ممن صفت أذهانهم ، ورقمت طباعهم ،
ولطف ظنهم ، وصحت نجاثرهم ، وجادت غرائزهم ، وكملت عقولهم بالمشورة . وحاول
أن يتخلص من الأتراك وكانوا تأصلوا فى جسم الدولة وروحها وكانوا كثروا وأبى
كثرة فى العاصمة والولايات ، وقدرت أرزاقهم وأرزاق المغاربة والشاكرية فى سنة
٢٥٢ فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة مائتى الف الف دينار ، وذلك خراج
للمملكة لسنتين فإذا تأخر عطاؤهم فهناك المؤامرات والمشاغبات وخوف البدوات
والنزوات والوثوب بالدولة .

ووسدت إمارة مصر لأحمد بن طولون (٢٥٤) من الأتراك، واستبد بجميع أعمال مصر لما وسد إليه أمر الأموال. وكان الأمير في مصر من قبل ليس له إلا الجند والشرطة وللعامل النظر في الأموال، وكلاهما يراقب صاحبه، وهما متساويان في المكانة وربما تقدم العامل على الأمير. والأقباط منذ كان الاسلام يتولون النظر في الأموال؛ فتتظر اليهم الأمة نظرها الى الصل والنعيبان، ويأمر صاحب الأمر مختلين. وكان مما أعان ابن طولون على استقلاله بذلك مصر ثم استيلائه على الشام وما إليها أن الخليفة أمره باعداد جيش لقتال أحد الخوارج في الشام. وبعد استئصال الفتنة لم يفض الجيش فكان له قوة نافعة في استقلاله. وكانت جمهرة الجيش من المماليك والديالة يشتريهم كما يشتري الرقيق. وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفاً من العميد الزنج ومن العرب وغيرهم. أما ابنه خوارويه فقبل إن عدة جيشه بلغت أربعين ألف فارس.

ولئن حسنت حال مصر على عهد ابن طولون ودرّج خراجها واستفاض عمرانها — لحسن ادارته وسياسته حتى فضله على بعض الخلفاء على كثرة ماسفك من الدماء — فان استيلاءه على الأمر فيها عدّ خروجاً على الخلافة، وإن كان يخطب لها باديء بد. ولم يثبات الخلاص من دولته إلا لما قوى العباسيون سنة ٢٩٢ فقتلوا آل بيتهم برمتهم، وخلفت الدولة الطولونية الدولة الإخشيدية^(١) وهي دولة أعجمية أيضاً.

(١) كان يطلق هذا الاسم (الإخشيد) على ملوك فرغانة وهو لفظ فارسي معناه ملك الملوك كما يطلق على ملوك الفرس الساسانية لقب شاهنشاه «ملك الملوك» وكسرى. وعلى ملك الروم باسيل وهو قصر، وعلى ملوك الاسكندرية بطليموس. واليمن نع، والترك والجزر والقرغز خاقان، والترك الغزية خوتة، والصين بنسور، والهند بلهرا، وقنوق راني، والحبشة النحاشي، والنوبة كاييل، وجزائر البحر الشرقي مهراج. وحال طبرستان اصفهذ. ودنابند مصغفان، وغرجستان شار. وسرخس زاذويه، ونسا وأيوورد بهمنه، وكش نيدوت، وأشرو سنة أفشين، والشاش تدن، ومرو ماهويه، ونيسابور كنباز، وسمرقند طرخون، والسريز الحجاج، ودهستان صول، وحرخان اناهيد، والصفالة قار، وملوك السريابين نيمروز، والقطب فرعون، وباميان شيرباميان، ومصر العزيز، وكابل كابل شاه، والترمز ترمذ شاه، وخوارزم خوارزم شاه، وشروان شروان شاه، وبخارا بخارا خداد، وكوزكان كوزكان خداد — ذكر ذلك البيروني في الآثار الباقية.

وتولى المهتدي « والدنيا كلها مفتونة » فحاول إعادة الخلافة إلى روثقها وأمر
بإخراج الفتيان والمغنين والغنيات من سامرا ونفاهم إلى بغداد ، وأمر بقتل السباع
وطرد الكلاب وإبطال الملاهي ورد المظالم وجلس ليرفعها فرفعت إليه قصص في
الكسور فسأل عنها فقال وزيره سليمان بن وهب شيئا في تاريخ الخراج منذ عهد
عمر إلى عهد المنصور فأجاب المهتدي : معاذ الله أن ألزم الناس ظلما تقدم العمل به
أو تأخر أسقطوه عن الناس . فقال أحدهم ان أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من
أموال السلطان في السنة اثنا عشر ألف درهم . فقال المهتدي على أن أقرر
حقا وأزيل ظلما وان أجحف ببيت المال .

وكان المهتدي آخر الخلفاء الذين كانوا يتولون بأنفسهم القضاء والمظالم ، وربما
كانوا يجعلون القضاء والمظالم لقضائهم كما فعل عمر مع قاضيه أبي إدريس الخولاني
وكما فعل المأمون مع يحيى بن اكنم والمعتصم مع أحمد بن أبي دواد ، وربما كانت
تجمل قيادة الجيوش للقضاة ، وكان يحيى بن اكنم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى
أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس .
وكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير
مفوض أو سلطان متغلب .

ولما همّ الجند بقتل المهتدي خطبهم فقال : أما دين أما حياءكم يكون هذا
الخلاف على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ،
ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بارطال الشراب فشر بها سرورا بمكروهم ،
وحبا بيواركم . ثم ذكر لهم انه لم يصل اليه من دنياهم شيء وانه ليس في منازل
اخوته وولده فرش أو وصائف أو خدم أو جوارى ولا لهم ضياع ولا غلات . وكان
حقيقة مقلا من اللباس والفرش والمطعم وامر بإخراج آنية الذهب والفضة من

الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودرهم وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحيت (١).

وجيء بالمعتمد فقسم المملكة بين ابنه وأخيه للموفق فقلب أخوه عليه وشغل هو بلذاته ، وكثر دخول الزعانف في القبض على الأعمال والفتن منتشية ؛ ومن أهمها فتنة صاحب الزنج ، والموفق يقود المساكر ، ويرابط ويرتب الوزراء والأمراء . وقيل ان المعتمد احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه

وطالت أيام المعتمد ولم يؤثر عنها ابداع جديد في الادارة والسياسة . وكان ديوان الموفق مائة الف مرتزق ، وكانت الدولة السامانية التي قامت في هذه الأيام في الشرق وتمتع باستقلال داخلي واسع ، كما يقولون اليوم ، من أحسن الدول سيرة وملوكها من بنى سامان أمتع ملوك الاسلام جانباً في عصرهم « لأنه (٢) ليس في الاسلام جيش إلا وهم شذاذ القبائل والبلدان والأطراف ، إذا تفرقوا في هزيمة وتمزقوا في حادثة ، لم يلتق منهم جمع بعده ، غير جيش هؤلاء الملوك ، فان جيوشهم الأتراك للملوكون ، ومن الأحرار من يعرف داره ومكانه ، إذا فشل منهم قوم أو ماتوا في وفور عددهم ما يعاد من بين ظهرانيهم مثلهم ، وان تفرقوا في حادثة تراحعوا كلهم إلى مكان واحد ، فلا يقدح فيهم ما يقدح في سائر عساكر الأطراف ، ولا سبيل لهم إلى التفرق في المساكر والتنقل في الممالك كما يكون عليه رسوم صغاليك المساكر وشحنة البلدان » .

وكانت طريقتهم في إقامة الأحكام ببلاد خراسان (٣) أن تضرب المقارع بين أيدي أجلة الأمراء ويشهد كل أحد في كل شيء ، غير أن في كل بلد عدة من

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) مسالك الممالك للاصطخري (٣) المسالك والممالك لابن حوقل

الزكّين فإن طعن الخصم على الشاهد سئل عنه الزكّي ولا يتحنك فيه إلا فقيه أو رئيس . ويختارون أبدأً ببخارى أفقه من بها وأعفهم ، يرفعونه ويصدرون عن رأيه ويقضون حوائجه ، ويولون الأعمال بقوله . وفي نيسابور رسوم حسنة منها مجلس للنظام فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قدم اليه فأنصفه وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ومجلس الحكم كل اثنين وخميس بمسجد رجاء لا ترى فى الاسلام مثله . وكانوا فى فارس^(١) يفضلون أهل البيوتات القديمة فى أعمال الدواوين يتوارثونها فيما بينهم ، وليس فى دواوين الاسلام ديوان أصعب عملاً وأكثر أنواعاً من ديوان فارس لاختلاف ربوعها على المتقلدين لها .

هذا مثال من حالة الدولة السامانية التى نشأت فى عهد المعتضد الطويل . وذكر المؤرخون انه على قلة معرفته بسياسة الملك عمرت^(٢) مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور ، وانه كان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، وكان ولى والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً فسكنت الفتن ، وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهذا الهيج ، وسالمه كل مخالف ، ودانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب ، وادبل له من أكثر الخالفين . وكان سريع^(٣) النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور ، يتفرد بالأمور ، ويمضى تدبيره بغير توقف ، ولى الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكفّ من كان يتوثب ويتشغب من الموالى .

وأمر المعتضد بافتتاح الخراج فى النبروز للمعتضى وهو فى حزيران من شهر روم ، وذلك للرفق بالناس ، وكتب الى الأقطار برد الفاضل من سهام الموارث على ذوى الأرحام ، وإبطال ديوان الموارث وكان من قبل يلحق كثيراً من الناس إعنات فى موارثهم ، ويتناول على سبيل الظلم من أموالهم ، ويتقلد جبايتها أناس

(١) مسالك الممالك للاصطخرى (٢) تاريخ ابن الطقطقى (٣) التنبية والاشراف للسعودى

يجرون مجرى عمال الخراج ، شيء لم يكن في خلافة من الخلفاء الى أن مضى صدر من خلافة المعتمد ، فجرى العمل بذلك على سبيل تأول ، فأزال المعتضد ذلك وأمر أن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته . وأن يصرف جميع عمال المواريث في النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال المواريث الى الحكام ، وكانوا يرتادون القضاة من أهل البلاد نفسها .

وللمعتضد مذهب جميل في سياسة عماله ؛ بلغه أن عامله على فارس أظهر أهبة في ولايته وأنفق ما وقعت له به هيبة في نفوس الرعية ، فسأل عن رزقه فقيل له ألفان وخمسمائة دينار في الشهر ، فقال اجعلوها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروتة^(١) . وكتب اليه في عامل عجز في ضمانه وهو مسجون بأنه كان في أيام ولايته يفرق عشرين كرا حنطة في كل شهر على حاشيته والفقراء والمساكين من أهل معرفته ، وأنه فرق ذلك في هذا الشهر على عادته . فقال : سرتني قيامه بمروتته ومعروفته . وأعفاه من أداء مبلغ كان يطالب به ، وردّه الى عمله وأحمد ما كان منه .

سارت الخلافة في طريق سوى على عهد المعتضد لسطوته ومهابته وعفته وإمساكه ، فكان مع حرصه على إبقاء سلطانه يخافه عماله ويكفون عن المظالم ، واستعمل بعضهم الشدة في حفظ الأمن . بلغ عامله بدمشق^(٢) أن رجلاً أعرابياً في أذرعات تنف خصلتين من شعر أحد فرسان الدولة ، فطلب الوالى معلماً يعلم الصبيان وقال له : تخرج الى اليرموك وأعطيك طيوراً تكون معك فاذا دخلت القرية فقل لهم : إني معلم جئت أطلب المعاش وأعلم صبيانكم ، فاذا تمكنت من القرية فارصد لي الاعرابي الذي تنف سبال الفارس وخذ خبره واسمه ، فاذا رأيته قد وافى أرسل الطيور

(١) لشوار المحاضرة للتونسي (٢) تاريخ دمشق لابن عسّكر

بمخبرك ، ثم قبض على الاعرابي وقطع رأسه وصلبه وضرب الجندى مائة عصاة وأسقط اسمه من الديوان ، لأنه استخذى للاعرابي حتى فعل بسبائته ما فعل .

كان من جميل سيرة المعتضد مع عماله وخوفه البطش بهم إذا جنوا ما يعاقبون عليه أنه إذا نكب رجلا من جلة العمال ورؤسائهم وكل به من يحفظه من قبله وشدد الوصية في صيانه ، ويظهر أن هذا التوكيل للعطالبة وزيادتها والتشدد فيها لا ليحفظ نفسه ، لئلا يطمع العامل . وكان يقول : هؤلاء أكابر من العمال الذين قامت هيبته في نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد ، هم أركان الدولة وأعضاء الوزارة والمرشحون لها فان لم تحفظ نفوسهم فسد الأمر . وهذا الغاية في الوقوف على نفسية العمال وحفظهم في أنفسهم . ومع هذه المسامحة واللين لم يرتفع السواد سواد العراق لأحد بعد غمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له أيام المعتضد^(١) .

وجمع المعتضد تسعة آلاف الف دينار فاضلة عن جميع النفقات وأراد أن يسبكها نقرة واحدة إذا أتمها عشرة آلاف الف ويطرحها على باب العسامة ليبالغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف الف دينار وهو مستغن عنها « بعد النفقات الراتبية والحادثة ، واطلاق الجارى للأولياء ، في سائر النواحي وجميع المرتزقة بها وبالخضرة . » رد المعتضد ببعد نظره مصر إلى حظيرة الخلافة بعد أن كاد يذهب بها احمد ابن طولون ، وكتب إلى ابنه خمارويه بولاية عليها هو وولده ثلاثين سنة . وذلك من الفرات إلى برقة ، وجعل اليه الصلاة والحراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يعمل في كل عام من المال مائتي ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل . ولعل ما ساقه إلى هذا التسامح مع الطولونيين ما تناصرت الأخبار عليه من أن الدولة العبيدية ظهرت اعلامها في المغرب فأحب أن يضع الطولونيين حاجزاً بينه وبينهم . ومن جميل حيلته أنه طلب إلى ابن طولون أن يزوجه^(٢) ابنة ابنه

(١) تاريخ الورراء للصاي (٢) خطط الشام للزلف

خمارويه واسمها قطر الندى وقال : ما قصدت بهذا الزواج إلا إيقار ابن طولون لأنه يضطر أن يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل . وكان الأمر كما قال فأتها جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام . وهذا هو الزواج السياسى الثمر والترتيب الادارى الحكيم .

الدارة على عهد المكتفى والمقتدر وكلام فى الوزراء

اكتفى المكتفى بنهج منهج والده المعتضد فى الادارة ، وكان وزيره العباس بن الحسن يقول لنوابه بالأعمال : انا اوقع لكم واتم افعلا ما فيه المصلحة . وقد يأخذ الوزير سبعة آلاف دينار فى الشهر راتباً ، ومن الوزراء من فادوا بخمسمائة الف دينار ليصلوا إلى الوزارة . ومنهم من اعطوا المنجمين مائة الف دينار ليحتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على احد وزرائه ثم يتوصلون إلى منصب الوزارة . وبهذا أدركنا ان الخلفاء انحطوا والوزراء كذلك .

بيد أن قواعد الدولة لم تنزل دفعة واحدة لأن المعتضد ثبت قواعدها ، ومن يحىء بعده مها ارتكب من الأغلاط لا يقضى على عامة التراتيب الموضوعه للخلافة منذ سنين ، فصح ما قيل من ان بنى العباس^(١) قوم منصورون تقتل دولتهم مرة وتصح مراراً لأن اصلها ثابت وبنائها راسخ . وخلف المكتفى فى يموت الأموال من العين ثمانية آلاف الف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين الف الف دينار . وفى رواية انه خلف مائة الف الف دينار عيناً وعقاراً وأوائى بمثلها .

واستخلف للمقتدر طفلاً ووالدته وخالته وأم ولد المعتضد تدير الملك ، حتى ان هذه السيدة جاست بالرفافة للمظالم تنظر فى السكتب يوماً فى كل جمعة ، فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر عيبيهم عليه والطعن فيه . ولم يكن فى حلوسها أول يوم

(١) تجارب الامم لابن مسكويه

طائل . وفي اليوم الثاني احضرت القاضي فحسن امرها وأخرجت التوقيعات عن سدادهم فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس إلى ما كانوا نافرين من قعودها ونظرها ، فالتندر في سنيه الأولى خصوصاً كان يتدبر بأراء النساء والحاشية ، والسيدة وقهر مايتها ومن يجري مجراها من نساء القصر ، يتحكم في كل امر ، ويتدخل في العزل والنصب . وأمرها صاحب الشرطة ببغداد ان يجلس في كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من الناس ظلاماتهم ويعتني في مسائلهم حتى لا يجري على أحد ظلم . وأمره ان لا يكلف الناس ثمن الكاغد الذي تكتب فيه القصص وان يقوم به ، والا يأخذ الذين يشخصون مع الناس أكثر من دافقين في اجعالم .

ورد المقتدر رسوم الخلافة^(١) إلى ما كانت عليه من التوسع في الطعام والشراب وإجراء الوظائف . وكان في داره أحد عشر ألف خادم خصي من الروم والسودان . وزاد في أرزاق بني هاشم وأعاد الرسوم في تفريق الأضاحي على الفقراء والعمال وأصحاب الدواوين والقضاة والجلساء ، وأسرف في الأموال فحق من الذهب ثمانين ألف دينار^(٢) وفرق في خمس وعشرين سنة ما جمعه المنتصر والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكشفي . وحرار الناس في امر دولة المقتدر^(٣) وطول أيامها على وهى أصلها وضعف ابتنائها ، ولم ير الناس ولم يسمعوها بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته . على انه كان جيد العقل ، صحيح الرأي ، ولسكنه كان مؤثراً للشهوات . قال التنوخي^(٤) : ولقد سمعت ابا الحسن علي بن عيسى الوزير يقول ، وقد جرى ذكر المقتدر بحضرته في خلوة : ما هو الا أن يترك هذا الرجل الدبذ خمسة أيام متتابعة حتى يصح ذهنه فاخاطب منه رجلاً ما خاطبت افضل منه ولا ابصر بالرأى واعرف بالأمور وأسد في التدبير . ولو قلت انه إذا ترك النبذ هذه المدة يكون في اصالة

(١) صلة تاريخ الطبري لعرب (٢) لطائف المعارف للشمالي (٣) تاريخ الطبري (٤) شعوار المحاصرة للتوحي

الرأى وصحة العقل كالمعتضد والمأمون ومن أشبههما من الخلفاء ما حسبت أن أقم بعيداً ، وما يفسده غير متابعة الشراب ولا يخبئه سواها اه .

« قيل إنه كان بين ابن زبر القاضى وبين على بن عيسى الوزير عداوة وعجز ابن زبر عن رضاه فألقى رقعة فى ورق المظالم ، وفيها أن رجلا من خراسان رأى فى ثلاث ليال متوالية العباس بن عبد المطلب فى وسط دار السلام يبنى داراً ، فكلما فرغ من موضع تقدم رجل لهدمه . فقال له : يا عم رسول الله من هذا الذى بليت به ؟ فقال . هذا على بن عيسى كلما بنيت لولدى بناء هدمه . فقرئت الرقعة على المقتدر فقال : ان هذه الرؤيا صحيحة يصرف على بن عيسى ويقبض عليه . فاجاء آخر النهار حتى وافى ابن زبر ومعه عهده بقضاء مصر ودمشق . فان صحت هذه القصة كان تصديق المقتدر حيلة القاضى من أغرب ما أثر من ضعف العقول .

وعلى بن عيسى هذا أكبر وزراء ذاك العهد ومن الأسر العريقة فى خدمة الدولة منذ أيام المعتضد^(١) كان من الثقة والصيانة والصناعة على جانب ، عامل المصادر من الوزراء والعمال بالرفق ، وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشریف أمير المؤمنين إياه بالخلع ، ورد أمر الدواوين والمملكة اليه ، وأقرهم على مواضعهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد فى العارة ، وكتب اليهم بانصاف الرعية والعدل عليها ، ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها . كما كان يطالب بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها . ونظر الى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية واقامة مروات نفسه فيها ، وقصر فى العارة واعتمد غيره . وعمر الثغور والبيارسنانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل المرضى والقوام ، وعمر المساجد الجامعة وكتب الى جميع البلدان بذلك ، ووقع الى العمال وكتب اليهم فى أمر المظالم وأمر بأن يستوفى الخراج بغير محاباة للأقوياء ، ولا حيف على الضعفاء . وساس

(١) تحارب الامم لابن مسكويه

الناس أحسن سياسة ، ورسم للعمال الرسوم الجميلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ، ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وثبوت ، حتى أسقط الزيادات في أقطاعات الجند والعمال وغيرهم ، لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج إلى هدم بيوت الأموال وصرفها في نفقات يستغنى عنها . وكانت يجرى على خمسة وأربعين ألف إنسان جرايات تكفيهم وخدم السلطان سبعين سنة لم يزل فيها نعمة عن أحد . قال الصولي : ولا علم أنه وزر لعن العباس وزير يشبهه في زهده وعفته ؛ بلغة ابن أسارى المسلمين في الروم ساءت حالهم وإن الروم يحاولون تنصيرهم فعمه ذلك . ولما كان يعرف أن الخليفة لا يريد قتال الروم عمد إلى طرق سلمية فندب بطريق انطاكية وجاثليق القدس أن يكتبوا إلى الروم كتابا يقبحان هذه المعاملة ويتوعدان ، فاضطرت دولة الروم أن تحسن معاملة المسلمين . وما عابوا على علي بن عيسى الوزير إلا أنه كان ينظر كثيراً في جزئيات الأمور فرجما شغلته عن الكليات ^(١) .

منع علي بن عيسى من إكراه التناء والمزارعين « على ^(٢) تضمين غلات بآدرهم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الأعشار في ضياعهم على التربيح ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبدة ، قبل إدراك غلاتهم وثمارهم ، وإكراه وجوههم على انتفاع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة بحجفة » ولما غلب السجزية على فارس جلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ففرض خراجهم على الباقين وكل بذلك قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكملة تستوفي على زيادة تارة ونقصان . وحاء قوم من أجلاء فارس وقالوا نمنع علاننا وتعتاق في الكناديج ^(٣) حتى تهلك وتنصير هكذا « وطرحوا من أكمهم حنطة محرقة » ونطالب بتكملة ما وجب

(١) الفخرى لابن الطقطقي (٢) تاريخ الورداء للصان (٣) واحد هاكدوح وهي الخزانة الصغيرة تحمل فيها الخبث وهي معربة

علينا فتدعوننا الضرورة الى بيع نفوسنا وشعور نسايتنا وأدائنا حتى تطلق الغلة وهي على هذه الصورة « ثم رموا من أكامهم تيناً يابساً وخوخاً مقدوداً ولوزاً وفستقاً وبندقاً وغيره » وقالوا وهذا كله خراج لقوم آخرين والبلد فتح عنوة ، فاما تساويننا في العدل أو الجور . فأنهى على بن عيسى ذلك إلى المقتدر بالله وجمع القضاة والفقهاء ومشايخ الكتاب والعمال وجلة القواد في دار الوزارة وقد جعلها ديواناً ، وتناظر الفريقان من أرباب الشجر وأرباب التكة فقال أرباب الشجر : هذه أملاك قد أنفقنا عليها أموالنا حتى أنبتت الفروس فيها وحصل لنا بعض الاستغلال منها ، ومتى ألزمت الخراج بطلت قيمتها . وقد كان المهدي أزال المطالبة ورسم الخراج عنها . وقال المطالبون بالتكة ما تسكوا به حالهم فيها واستمرار الظلم عليهم بها . ورجع إلى الفقهاء في ذلك فأفتوا بوجوب الخراج وبطلان التكة .

هذا تمثيل للإدارة على ذاك العهد وصورة من أعمال الوزراء . وبأمثال على ابن عيسى وابن الفرات كانت القوة تدخل على ملك بني العباس إذا عراه الضعف ويحبسون نقص الخلفاء . ويمثل الوزير الخاقاني والوزير الخصي ترجم القهقري . فان كان على بن عيسى بعيد النظر في أمور الدولة جدت عارف بما يصلحها ، عقاً عن أموال الرعية ساهراً على مصلحتهم الحقيقية فان ابن الفرات كان نافذاً في عمل الخراج وتدير البلاد وجباية المال وافتتاح الأطراف . وكلاهما من بلغاء الكتاب ومن العارفين بأدب الملك . وكان للدولة رسوم في تخريج رجال الإدارة ومما ذكره ان باذرويا كان يتقلدها جلة العمال . قال ابن الفرات : سمعت أبا العباس أخى يقول من استقل ببازرويا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة . وذلك لأن معاملتها مختلفة وقصبتها الحضرة ، والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والكتاب والاشراف ووجوه الناس ، فاذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه الطبقات صلح للأمر الكبار .

وبعد أن كان الخلفاء على استعداد تام لإدارة الملك، أصبحوا يعتمدون على وزراءهم فإن كانوا علماء أخيراً جرت الأمور على سداد، وإن كانوا جهالاً أضراراً زاد البلاء والشقاء، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة، وزالت عن الجند والرعية هيبة الخلفاء، وخلت من الأموال خزائهم. والواقع إذا استثنينا عهد المعتضد لا نشاهد في خلفاء بني العباس بعد عهد المأمون من كان ذا عبقرية في الإدارة، وقد لا تنتظم الأحوال حتى بوجود الوزراء الحكيمين لأن للرأس تأثيره، والخليفة مرجع الأعمال وجميع السلطات فإن كان على اتزان تختفي العيوب في إدارة سلطنته المستبدة الطويلة العريضة، وإلا فالأنحلال باد والملك في تنازل. وهناك خليفة يدبره أخوه، وآخر تدبره أمه وجواربها، وغيره تدبره قهرمانته، وثالث يدبره وزيره. وقل في بني العباس أن جاء خليفة كالمأمون والمعتضد من يصدر عن رأى نضيج ويعنى بملكه عناية حقيقية.

وكان الخلفاء في الجملة مشغولين بأنفسهم ودفع أعدائهم عنهم، وكثير منهم من يقتل بأيدي الجند. وقل فيهم الرجل الرشيد بعد القاهر، وكانت الأمور تجري بقوة التسلسل، وبنو بويه ثم بنو سلجوق وغيرهم هم أصحاب الدولة بالفعل والخليفة لأعماله في الحقيقة، بل هو أشبه بخيال يختفي وراءه صاحب السلطان إذا أراد أمراً لا يرضاه العامة إلا إذا صدر عن الخليفة.

نعم صار الخليفة تابعاً للملك أو للمتغلب ولم يبق شيء يقال له إدارة؛ لأن الخليفة لا يحكم حتى على بيته فأصبحت الإدارة إدارة للوك والأطراف وإدارة الفرس والترك، والشأن في السلطان شأنهم لا تكاد تسمع للخلفاء اسماً. وكان من عادة أكثر خلفاء العباسيين أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم. جرت بذلك سنتهم إلى آخر أيام المستنصر فلما ولي المستعصم آخر خلفائهم ببغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم. وكان من عادة حبس أولاد الخلفاء ضعفهم بل بلاهتهم إذا أسندت

إليهم الخلافة ، وربما أنصرفوا أكثرهم في دور احتباسهم إلى اللهو والشراب فإذا جاءوها عجزوا عن إدارة الملك لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم .

ولقد كان الرسم في عهد الخلفاء الأول من بني العباس ان يراقب الوالد ابنه والابن أباه والأخ أخاه على طريقة مستورة عن الأنظار ، وتوسد إلى أبناء الخلفاء قيادة الجيوش وإدارة الولايات ويشتركون في السلطان إلى حد معين ، وتؤخذ آراؤهم في النوازل ويدخلون في مجالس المشورة فيكون لهم بذلك شيء من الوقوف ينفعهم يوم تولى الأمر ويعرفون أنهم شركاء في هذا الملك لهم رأى يعتد به ويجب عليهم الاهتمام لمصلحه

وفي عصر الانحطاط حجب أبناء الخلفاء فأصبح أكثرهم إلى الجهل والبلاهة يدرسون إدارة الملك في الكتب وربما لا يرخص لهم ان يدرسوا في كل كتاب ويسمعون من مربيهم وأساتيدهم ما يريدون أن يسمعوهم ، ولكنهم لا يعلمون بالعمل شيئاً كثيراً يصح ان يكون مادة لحياتهم وحياة الخلافة إذا أتت نوتهم لتولى هذا المنصب الجليل .

« تمت »



فهرس

الادارة الاسلامية فى عز العرب

صفحة	
٣	المقدمة
٥	الادارة الاسلامية — نظر فى الموضوع
٧	ادارة الرسول
٢٣	ادارة الخلفاء الراشدين
٦٥	ادارة الأمويين — الادارة على عهد معاوية بن أبى سفيان
٨١	ادارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك
٩٢	ادارة الوليد وسليمان
٩٥	ادارة عمر بن عبد العزيز
١١٤	ادارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد
١٢٠	ادارة العباسيين — تدابير السفاح والمنصور
١٣٥	ادارة المهدي والهادي والرشد
١٤٨	ادارة الأمين والمأمون
١٦٥	الادارة على عهد المعتصم وأخلافه
١٧٣	ادارة المعتز والمهتدى والمعتمد
١٨٠	الادارة على عهد المستنفي والمقتدر وكلام فى الوزراء

CALL No.

٢٥٤٤٣

ACC. NO.

١٨٤١٨

AUTHOR

TITLE

الاداءة الاسلاميه في غرب العرب

THE BOOK MUS

Date

No.

Date

No.



**MAULANA AZAD LIBRARY
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY**

RULES:—

1. The book must be returned on the date stamped above.
2. A fine of Re. 1.00 per volume per day shall be charged for text-books and 10 Paise per volume per day for general books kept over-due.